حسن دوح





عاما فى جماعة

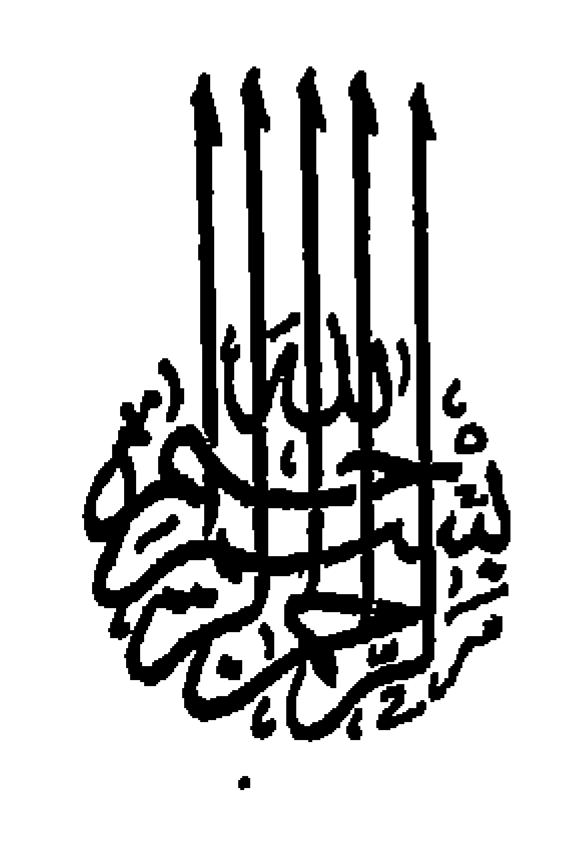
مرورًا بالغابة

دار الاعتصام

حسن دوح

٢٥ عاما في جماعة

دار الاعتصام



المقدمة

أكتب هذه السطور وأنا أتهيب الكلمات بل الحروف . . أتهيبها لأمور كثيرة أهمها خشية أن أضعف أمام الحقيقة فلا أضعها كما هى أو أحاول تغليفها بستائر كثيرة قد تحجبها عن القارىء . . ثم مخافة علاقات اجتماعية لها أغوار عميقة أحرص على الإبقاء عليها لأنها تمثل أكبر رصيد لى فى حياتى ، وأحرص عليها كميراث لأبنائى من بعدى . . ثم خشية من يتأولون الكلام على غير وجهه ، أو تكون الأيام قد أحدثت ثغرات فى علاقتنا كنتيجة لأخطاء سواء منى أو منهم . . وأخيراً وقد يكون أولا ضغط الظروف ، أو ضغط الأحداث أو الحوادث سمها ما شئت لأنى أفتقد تسميتها . . ولكن سوف تجد صورتها جاثمة ومجسدة عبر هذا الكتاب . . كل هذه المحاذير والمخاوف تقف متربصة من الكلمة التى أهم بتسجيلها . . والذى أرجوه أن أتمكن من إيداع أكبر قدر من الحقيقة بين يدى الأجيال حتى يتجنبوا عثار الخطو على الطريق . . فإذا وقع منى بعض التقصير فأرجو التماس عذر لى من أى باب من الأبواب . .

كلمة لابد منها

قرية صغيرة ترقد على الجانب الغربى للنيل . . اسمها « طفنيس » وهى تتبع إسنا ثم قنا . . هذه القرية لا تزال تحكمنى إلى اليوم فى كثير من تصرفاتى . . وحكمها لى لا أرفضه دائماً ولا أقبله كما تنزل على . . فقريتى كانت وما زالت من أكبر المعلمين لى فى حياتى . . علمتنى أشياء افتقدتها فى أكبر المؤسسات العلمية . . بل افتقدتها فى الكتب والمؤلفات . . علمتنى البساطة والسهولة والصدق وقدسية الكلمة . . والحفاظ على العرض . . وعلمتنى الديمقراطية بمعنى كلمة الديمقراطية . . هذا الذى علمتنى إياه قريتى لم أجده على طريق الحياة الطويلة العريضة التى عشتها فى المجتمع المصرى وفى المجتمعات الأخرى . . لكن هل عملت بما علمت وبما تعلمت ؟؟ أقول أننى أحاول ذلك . . أحاوله بكل جهد ، وقد يصيبنى الفشل أحيانا وقد يحالفنى التوفيق أحيانا أخرى . . وهناك أخلاقيات فرضها على مجتمع « طفنيس » وما زلت أسيرا لهذه الأخلاق ، بل وحريصا على البقاء فى هذا الأسر . . وحرصى هذا مرده إلى أننى بعد دراسة لا بأس بها وبعد اختلاط كبير وكثير بمختلف المجتمعات وجدت « طفنيس » تقف على القمة . . وتملى إرادتها على . . وأنا فرح بحكمها وتحكمها . .

من هذه القرية خرجت إلى الحياة لأعيشها بطولها وعرضها كما يقولون . . ولا أعنى بالطول والعرض السياحة فى الأرض فهذه لم يكن نصيبي منها كبيراً . . ولكن السياحة التى عشتها كانت فى مجتمع أو مجتمعات تضطرب بأفكار وتقاليد ومثاليات وأعراف تأثرت بها أيما تأثر وحاولت جهدى أن أعطيها مما أعطتنى . . وكما يقولون فى المثل المعروف « يجود علينا الخيرون بما لهم ، ونحن بمال الخيرين نجود » . . فإن كنت قد أعطيت شيئاً فهو من فضل هذا المجتمع ومن خيره . .

ولأنى لا أقصد من وراء هذه الدراسة تسجيل مذكرات شخصية بقدر ما أستهدف إيداع الأجيال من بعدنا تجارب أثرانا بها جيلنا والجيل الذى سبقنا . . فإننى سأمضى سريعاً على مسيرتى الخاصة مسجلا منها ما يكشف للقارىء طبيعة تفكيرى والمؤثرات التى كانت ولا تزال تؤثر فى هذا التفكير .

إن الأفكار ليست أرغفة صنعها الخباز يوماً بيوم ليلتهمها الناس وتنتهى ، إنها ثمارغراس تتضامن فيها عناصر كثيرة ، ثم تمتزج فتنضج على مهل لتؤتى أكلها بعد ذلك . . وقد تكون مرة المذاق وقد تكون حلوة .

لقد تأثرت بقريتى . . تأثرت بمجتمعها الصغير . . وخاصة مجتمعى الأصغر . . كنا ونحن صغار نتسلق النخيل ونركب الجاموس ونغطس فى القنوات ونلعب بثمار الدوم وتستهوينا مزارع القصب فنغامر فيها نهاراً ، إلا أننا كنا نهابها ليلا . . وكانت مصادر ثقافتنا

الكتاب وحكايات الجدات . . ومغامرات الرجال فى مزارع القصب . . وصراعات الشباب مع الثعابين والحيات والعقارب . . وكانت متعتنا بل متعتى المفضلة تصيد العقارب المتربصة تحت الجدران ، هذا بالنسبة لمجتمعنا الصغير . . أما مجتمع القرية الكبير فكنا نشاهد مجريات حياته عن بعد . . وكان الكبار لا يهتمون باشراكنا فى مشاكلهم ومناقشاتهم ، إلا أننا كنا نتسقط الأنباء من خلف الدواوين . . ونتخاصم ونتصالح من خلال الكبار . . كان الصراع حول العمدية وكراسى المجالس النيابية والمجالس البلدية يستهوينا لأبعد حد . . وكان تحزبنا للكبار يدعونا لخصومات قد تصل إلى التضارب . وقد انتقلت بعض هذه الخصومات معنا إلى مدارسنا . . بل إنها انتقلت مع بعضنا إلى جامعاتنا . . ولم تستطع قلاع العلم أن تستأصل النزعات القبلية الغبية .

أما دنيا البيت فى قريتنا فكانت عنيدة لأبعد حد . . الأب هو السيد الأول والرب الأعلى فى البيت . . أما المرأة فكانت تابعاً مستسلما لإرادة الرجل . . وكانت علاقتها بالحياة الخارجية مقطوعة تماماً . . كانت للبيت وللبيت فقط . . حتى الدراسة البدائية فى الكتاب والمدرسة كانت محرمة عليها .

هذا المجتمع فرض نفسه على حياتى فترة طويلة من الزمن . . وعلى الرغم من محاولاتى الكثيرة للتخلص من بعض عاداته إلا أننى لم أوفق تماماً للتحرر منها ، بل إننى عدت راغباً فى مواقف كثيرة إلى هذه العادات والتقاليد ، وذلك حينما اصطدمت « بجناية » ما سمى

بالحضارة والتقدم . . ولعل ما سأتحدث عنه مستقبلا بشأن المرأة يكشف بعض جوانب الارتداد — ولكنه ارتداد بروية وتعقل .

خرجت من هذه القرية ومن كتابها وانتقلت إلى المدينة حيث المدرسة الابتدائية ، وكانت خطوة هائلة بالنسبة لى وبالنسبة لأهلى وقريتى كذلك . وخاصة عندما لبست البدلة والطربوش وطرحت الجلباب والطاقية ثم تهته لسانى بعبارات إنجليزية أثارت إعجاب أهلى وإخوتى . . كانت إسنا أكثر استمتاعاً بأسباب الحضارة ، فيها العمارات الكبيرة . . والقصور الفاخرة (من وجهة نظرى) ثم الكهرباء التى تضىء البيوت والقصور والشوارع ؛ والعربات والقطارات ، ولقد هزنى بالاعجاب كوبرى إسنا الذى تغنى به الشعراء وغنت له الإذاعات . . فرحت بالحياة الجديدة ولكن فرحى بها لم يهبنى الراحة النفسية فقد ابتليت ببعض قساة المدرسين الذين كانوا يغلظون لنا القول ويشتدون فى ضربنا . . حتى أن أحدهم كادت قسوته أن تحملنى على ترك المدرسة . كما أننى لم أكن راضيا عن مجتمع إسنا فقد كانت طباعهم تختلف عن طباعى وعاداتهم تتنافر مع عاداتى وتقاليدى ، فمثلا كان بعض النساء يظهرن من النوافذ كاشفات الوجه . . بل كان بعض زوجات كبار الموظفين يتمخطرن فى الطرقات بملابس تنحسر إلى الركبتين ويكشفن وجوههن وشعورهن . . كان هذا المنظر بالنسبة لى مرعباً ومثيراً للغضب . . وكان حكمى على هؤلاء النسوة أنهن ذاهبات جميعاً إلى النار لتأكل أجسادهن الطرية . . أما النساء الأوروبيات

اللائى كن يزرن « الكرنك » فكنت أنظر إليهن للفرجة والتأمل والتخيل ، وأتعجب من ثيابهن التى لا تكاد تغطى شيئاً من أجسادهن وكن يمشين بجرأة ويضحكن ويمرحن مع الرجال دون ما حياء أو خجل . . وكان حكمى على الرجال والنساء أن مصيرهم جميعاً واحد لأنهم ملة كفر . . وكنا ننسج حولهم أو بالأحرى حولهن قصصاً يغلبها خيال الطفولة . .

كانت هذه المشاهد تجرى أمامى وتسجل انعكاساتها فى نفسى وتثبت فى ذاكرتى وتتفاعل مع مشاعرى لتصنع عناصر شخصيتى . .

ومضت مرحلة الدراسة فى إسنا متثاقلة لتعثرى فى بعض السنوات الدراسية ، ثم أقسمت بغليظ الأيمان ألا أكمل تعليمى إلا فى القاهرة لأشاهد العتبة الخضراء ، التى كنت أتخيلها كعتبة بيتنا ، بل إنها تعلوها كثيراً وأنها تعترض مدخل المدينة الأسطورية . . ولا يستطيع زائر القاهرة أن يدخلها إلا بعد أن يتخطى هذه العتبة . . وكنت أتخيل منظر الترام الذى يسير بلا وقود ولا دخان ولا مداخن . . وأتمثل نفسى وأنا أمتطى هذه المركبة العجيبة . وهى تسحق الطريق سحقاً . . كانت القاهرة أكبر من خيالى بل وتخيلاتى ، فأهلها يختلفون تماماً عن أبناء إسنا وطفنيس ، يختلفون عنهم فى لغتهم وملابسهم وعاداتهم ، وكانوا يتعاملون معنا كأغراب دخلاء عليهم . . وكانت تستهويهم النكت فيرسلونها فى وجوهنا حيثما حللنا . . كانت النكت تتناول عاداتنا ولهجاتنا وفقرنا وجهلنا . . وكانت فى الواقع نكتا معبرة عن واقعنا ولكنها كانت جارحة ومؤلمة ولم يكن لنا حول فى مواجهتها ،

إلا الشتم والسب ، فكانت شتائمنا تنعكس علينا نكتا أخرى ! !
ولقد ووجهت بهذه الصورة فى المدرسة ، نكتت من المدرسين والتلاميذ ، وتصادم وتضارب . . ولم يكن أمامنا من وسيلة للهروب من المجتمع القاهرى إلا الالتقاء بالبلديات والتجمع معهم فى الأحياء النائية ، أو عند مداخل العمارات الضخمة حيث يقوم البلديات حراساً عليها ، وكان عم « على أبو بحيل » يعتبر من أبرز الشخصيات المجمعة لأهالى قريتنا لمـــا اشتهر عنه من الكرم والحكمة .

وأهم ، بل وأخطر المشاكل التى واجهتنى وحيرتنى . . مشكلة المرأة . . المرأة المجسمة والمرأة المصورة والمرأة الناطقة . . كل شيء فى المرأة كان يخيفنى . . صورها على أغلفة المجلات وعلى واجهات السينمات . . والحكايات التى كنت أسمعها عن النساء « الغوازى » و « الراقصات » . . كانت هذه الصور تزعجنى وتخيفنى ، وتصادف أن وقعت لى حادثة زادت من خوفى وانزعاجى . . كنت ذات يوم أعبر جبلاية تسمى « جبلاية زينهم » وهى عبارة عن منطقة جبلية موحشة تقع ما بين شارع السيدة عيشة وشارع القصر العينى . . وكانت هذه المنطقة مرتعاً للصوص وتجار النساء . . فى أثناء عبورى اعترضتنى امرأتان ورجل وحاولت المرأتان إغرائى بشتى الصور ، فحرت فى أمرى ولم ينقذنى منهم إلا حكايات جدتى . . فقد تذكرت حكاية جدتى التى كانت تقصها على فى صغرى . . كانت تقص على حكاية الغول الذى هجم على رجل وكاد يلتهمه ، ولم ينجه منه إلا قوله : السلام عليكم ورحمة الله . فقال له الغول :

« لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عضامك » تذكرت هذه القصة فألقيت السلام على المرأتين والرجل فأخرسوا ولم يتعرضوا لى بسوء، وتصادف فى هذه اللحظة الحرجة ظهور أحدباعة العنب من وراء أحد المرتفعات فاستأنست به وتمكنت من النجاة بحيــاتى .

هذه الواقعة زادتنى خوفاً من المرأة . . والآن وبعد مضى ثلاثين سنة على هذه الواقعة لا أزال أشعر بالحذر من دنيا المرأة ، ولقد أكدت لى كثير من الحوادث والأحداث على المستوى المحلى والعربى والدولى . . أن المرأة تلعب دوراً خطيراً فى حياتنا . . وأن الإغراق فى الجنس يوشك أن يدمر البشرية ، يدمرها فى مالهــا وصحتها وهدوئها . . وآمنت عن دراسة وتأمل أنه ينبغى أن تضيق علاقة المرأة بالرجل إلا فى مجالات العلم والعمل والضرورات القصوى . . أما ما عدا ذلك فأرى الاكتفاء بالعلاقات الزوجية فقط .. وبوضوح أكثر إننى أرفض الانفتاح على المرأة من باب الجنس الذى يتخذ صورا وأشكالا منها الحفلات الصاخبة ، والراقصة ، ومسابقات الجمال ، والسكرتيرات الحسناوات . . هذه الصور أعتبرها من أخطر الجرائم فى حق الرجل والمرأة والأسرة والمجتمع والإنسانية ، أما أن تعمل المرأة وتتعلم ، وتتقدم بعقلها وخبرتها ، فهذا حق من حقوقها وليس منة من الرجل . . للمرأة أن تأخذ كل الفرص المتاحة لهــا فى الحياة . وليس محظوراً عليها إلا أن تكون متعة مشاعة للرجل . .

وليسمح لى القارىء أن أسرع الخطو إلى أن أدخل إلى لب الموضوع كما يقولون . . وليكن بداية حديثى عن أول لقاء لى مع حركة الإخوان المسلمين .

اللقـاء الأول

وكان أول لقاء لى مع الفكر والسياسة والنشاط العام فى قريتنا فى الثلاثينيات ، حينما زار قريتنا شابان من شباب الإخوان المسلمين المتحمسين ، هما الشيخ الجنيدى وكان طالباً بكلية الشريعة بالأزهر ، والآخر وهو أحمد رفعت ، وكان طالباً بكلية التجارة بجامعة القاهرة. اجتمعت القرية فى مسجد كبير لتستمع للخطيبين وهما يجلجلان فى صحن المسجد . وعلى الرغم من جودة كلام الشيخ الجنيدى . . إلا أن إعجابنا بالأفندى الذى يخطب فى الدين كان أكبر من إعجابنا بالشيخ الذى كنا ننظر إليه على أنه مكلف بتأدية وظيفة تؤهله لها دراسته وملابسه التقليدية . .

بعد أن انفض الاجتماع التقيت بأحمد فى « المندرة » وأغرقته بأسئلة عن عمله ووظيفته — وكنت فى الثامنة من عمرى — وبعد أن شرح لى رسالته فى بساطة وأنه ينتمى لجماعة تسمى « الإخوان المسلمين » وأنه موفد من قبلها ليخطب فى الناس ، زاد إعجابى به

وتعلقت به ورجوته أن يصطحبنى فى رحلاته ، ولكنه اعتذر لى بأسلوب يتفق مع سنى ، قال لى أن الرحلة تحتاج لنفقات وأنك لا تستطيعها . . فأخرجت من جيبى خمسة قروش وقلت له أننى أملك هذا المبلغ . فلاطفنى ووعدنى بمصاحبته بعد أن أكبر . . ثم وقع حادث للشابين لم أستطع فهمه إلا بعد أن كبرت ، فقد

اتصل مأمور مركز إسنا تليفونيا بوالدى الذى كان يشغل وظيفة عمدة القرية وسأله عن الشابين وطلب منه اعتقالهما . . ولكن والدى ماطله ووعده بالبحث عنهما . . إلا أنه فعل عكس ذلك وأوحى للشابين بترك القرية وعرفهما بطريق جانبى يؤدى بهما إلى قرية مجاورة . .

مضى على هذه الزيارة وما لابسها من مفاجآت فترة كبيرة لا أذكرها الآن ، ثم التقيت للمرة الثانية بصديقى الكبير أحمد رفعت وذلك فى عام ١٩٣٩ وهو يسير ضمن مظاهرة إخوانية تهتف بشعارات لا أذكرها . . وكان عدد المتظاهرين لا يتجاوز المائتين وكانوا يتمنطقون بأحزمة خضراء تدور حول أكتافهم تشبه إلى حد كبير ما يلبسه كبار القضـــاة فى مصر . .

كان لقاء أحمد لى طيبا ومفرحاً ، وأشعرنى الرجل بحنانه وعطفه فأنست به كثيراً ، وبعد نهاية المظاهرة صحبنى إلى دار الإخوان التى كانت تقع فى ميدان العتبة الخضراء التى كنت أحلم بها . . حيث استمعت إلى حديث من أحد خطبائهم . . . ثم انقطعت علاقتى

ثانية بأحمد وبالإخوان . . وبعد فترة لا أذكر مداها ، وبينما كنت أقضي أجازة آخر العام الدراسي بقريتنا ، وصلت والدى رسالة غريبة الشأن من أحمد ، أثارت دهشته وتعجبه بل وضحكه الشديد ، ثم نادانى والدى ودفع إلى بالرسالة وهو يقول « صاحبك صار نبيا يا حسن » . . ! !

تناولت الرسالة وقرأتها بشغف لأتعرف أخبار صديق القديم . . وكان وقع الرسالة على أشد من وقعها على أبى ... لأن الرسالة تضمنت

إعلانا من أحمد رفعت أنه أوحى إليه وصار نبيا ، وأنه المعنى فى القرآن باسم « أحمد » إلا أنه لم ينكر نبوة محمد — عليه الصلاة والسلام — والأعجب من هذا أن الرسالة كانت ممهورة بإمضاء آخر لشاب اسمه أحمد عزت ، الذى أكد لنا إيمانه وتصديقه برسالة زميله أحمد رفعت . . فزعت من الرسالة فزعاً شديداً وانتابنى قلق وخوف شديدان على صديقى الكبير الذى « كفر » والذى سينتهى مصيره إلى جهنم . . ولكننى لم أستطع أن أفعل شيئاً أمام هذا الحدث الخطير ! ! ومضت سنوات على هذه الحادثة ، وعلمت أن رفعت ندم على فعلته وتاب توبة نصوحاً ، ثم التحق بإحدى الثورات الفلسطينية حيث قتل شهيداً .

مضت الحياة بى بعد ذلك فى دروب مختلفة ، فقد التحقت بطريقة صوفية عام ١٩٤٠ هى الطريقة الخلوتية وكان رائدنا عالماً فاضلاً هو الشيخ عبد الجواد الدومى . . وكنت أحضر معه حلقات

ذكر وأستمع إلى دروسه القيمة ، ولقد استطاع الرجل أن يثير إعجابى به وبجماعته ، ولكنى بعد أن تعرفت إلى الإخوان شعرت بالفارق الشديد بين تجمعات الإخوان التى كانت تضم الكثير من الشباب الأفندية ، وبين مجموعة الشيخ الدومى التى كانت تقتصر على المشايخ . كانت مجموعة الشيخ الدومى تحصر عبادتها فى جلسات الذكر ، والتعاون فيما بين رجالها ، ولا تهتم بالمشاكل العامة وخاصة المشاكل السياسية . . وكنت أضيق فى صدرى من تقبيل يد الشيخ ، إلا أننى لم أستطع مخالفة تلامذته الذين كانوا يحرصون على تقبيل يد شيخهم بشغف شديد ، مع أنه لم يكن حريصاً كغيره على هذه العادة . ومع أن الشيخ لم يكن يدعى لنفسه كرامات إلا أن تلامذته كانوا حريصين على نسبة الكرامات إليه .

أسأل نفسى الآن . . هل كان لهذه الطريقة أثر فى نفسى . . ؟؟ جوابى أن الطريقة أخذت بيدى فى أول شبابى واستطاعت أن تحمينى من المجتمع الجديد . . مجتمع القاهرة الذى دخلت إليه من أوسع الأبواب . . ثم إن الطريقة جمعتنى بمجموعة من الأصدقاء الأزهريين الذين أمدونى بقدر كبير من المعرفة بأمر دينى ، ولكنهم أغرقونى من أول الطريق فى بحور التصوف ، وأعجبت بكتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، ومكاشفة القلوب فى ذكر علام الغيوب . . وتمكنت فلسفة الغزالى من قلبى حتى وجدت نفسى مسيراً كالمنوم بكلمات وتعبيرات وقصص الغزالى . . ! ! فغدوت

أنظر إلى الناس بمنظار أسود ، وأتهم كل تصرفاتهم . . وفى نفس الوقت تسربت الريبة والشك إلى عباداتى فاتهمت نفسى بالتفريط والتقصير

أخلص من هذا إلى أن ملازمة الطريقة الصوفية ومصاحبة بعض الشباب الأزهرى تركا آثاراً بعضها طيب زكى وبعضها فيه دخن . . إلا أننى فى الواقع أشكر لهم فضلهم على ، لأنهم أخذوا بيدى من أول الطريق وخاصة فى المراحل الأولى من شبابى .

* * *

بدأت صحتى تعتل . . وضاقت بى أسباب الرزق لظروف طارئة ألمت بوالدى الذى كان من قبل على جانب من اليسر . . حتى عجزت عن الإنفاق على علاج أمراضى . . وحاولت أن أعمل إلا أننى فشلت فى الوصول إلى عمل منتظم ، وأذكر أننى ذهبت عن طريق أحد أساتذتى إلى أحد كبار الفنانين وكان يشرف على دار الأوبرا وطلبت منه إلحاقى بعمل كتابى فى دار الأوبرا ولكن الرجل نصحنى بالابتعاد عن هذا المجال . . ففرحت بنصيحته ، وفى نفس الوقت شعرت بالخجل من نفسى . . وأمر من هذا أننى هممت لأعمل فى أحد المعسكرات الإنجليزية بوظيفة كاتب حسابات . . ولا أذكر من صرفنى عن ذلك الطريق . . فحمدت الله للظروف التى حالت بينى وبين مثل هذا العمل . .

أعود لحالتى الصحية موجزاً القول عنها مع أنها تركت فى نفسى وفى حياتى وفى مستقبلى آثاراً بعيدة ، وكانت ولا تزال تلعب دوراً حيوياً فى تنبيه مشاعرى وإرهاف أحاسيسى . . إن المرض ناقوس هائل لإيقاظ الغافلين عن حقيقة دنياهم وأنفسهم . . إنه أحد إشارات الخطر المذكرة بالنهاية . . ويكفى أن أقول بالنسبة لحالتى الصحية . . أننى خضعت لخمس عمليات جراحية كبرى إحداهن استئصال الكلية اليمنى . . وعشت قيد أسرة المستشفيات أكثر من ثلاثة أعوام. هذا بالإضافة إلى متاعب باطنية تلازمنى منذ الصغر . . ومع هذا كله فإننى أبدو أحسن حالا من كثير من زملائى الذين فى مثل سنى ، ولقد خرجت بنتيجة هامة بعد معاناة أكثر من ثلاثين سنة من أمراض متصلة ، وهى أن الإرادة القوية قادرة على التغلب على كثير من متاعب الإنسان ، وأن أخطر شىء على المريض استسلامه لمرضه وتقلبه بين يدى الأطباء وكثرة تعاطى الأدوية ، وهذا طبعاً لا يتنافى مع التزامنا بالأخذ بأسباب العلاج التى ينصح بها الأكفاء المخلصون من الأطباء .

كانت لظروفى المعيشية والصحية التى ذكرتها آثار بعيدة المدى على حياتى الدراسية على طول الطريق ، منها أننى تخلفت فى دراستى المتوسطة والجامعية . . ويكفى مثلا لأبرهن على أثر هذه الظروف فى دراستى أننى فى السنين التى تيسرت لى فيها أسباب الرزق لم أرسب على الإطلاق . . ولقد استطعت بعد جهد أن أحصل على المؤهل الجامعى الذى صار مع الزمن بمثابة رخصة المرور لعبور طريق الحياة .

إننى أحاول بقدر جهدى أن أضغط الحديث فى الأمور المتعلقة بى . . ولولا أنها ستعين القارئ للتعرف على مواقف عامة وهامة بالنسبة لموضوع الكتاب لمـــا تعرضت لذكرها . . لأننى لا أحب أن يتصورنى القارىء وكأنى أحد المغرورين من زعماء مصر الذين كانوا يشغلون الشعب بآلائهم ومآثرهم وما لاقوه من عذاب وسجون ! ! حتى يكسبوا عطف الجماهير وتعاطف الأصوات الانتخابية . . هذا ما أخشاه . . بل ولعله كان من الأسباب الرئيسية التى حبستنى من زمن عن تسجيل هذه الرحلة الشاقة على طريق الحياة . . والتى لا أحب أن أسبق القارئ . . وأتعجل وصفها ، ولكنى ومن خلال ذاكرة منهكة سوف أضع الحقائق أمامه ثم أترك له التأمل والحكم على صورة فترة رهيبة فى تاريخ أمتنا ، وتاريخ شعبنا . وأطمع أن أكون عند حسن ظن القارئ فى بسط الحقائق مجردة — وأطمع كذلك أن يمنحنى ثقته وتصديقه لمـــا أقول . . لأننى بفضل الله أستمسك بالصدق استمساكى بدينى ، وأومن إيمانا راسخا بأن الصدق هو شهادة ميلاد الإنسان الحقيقية . . وأن الكذب هو شهادة وفاته . . وأومن أن من الأسباب الرئيسية فى هزيمة أمتنا على طول الطريق هو الكذب . . وخاصة الكذب السياسى .

ولنعد لحديثنا حتى لا تتشعب بنا السبل ، ونتوه فى دروب ضيقة قد تضلنا عن الطريق الواسع المستقيم . .

لقد أمضيت مرحلة الدراسة الثانوية سواء فى القاهرة أو فى سوهاج الثانوية ، أمضيتها تحت ضغط الظروف التى ذكرتها . .

أما بالنسبة للفكر فقد شغلت فى النصف الأول من دراستى بالطريقة الصوفية التى سبق أن تحدثت عنها . . ولم تتجاوز علاقتى بالإخوان عدا ما ذكرته من قبل إلا بعض زيارات لشعبة الإخوان بسوهاج حيث كنت أستمع للخطب التى يلقيها شباب الإخوان . . وأذكر أنى اشتركت فى إلقاء خطب قصيرة فى قسم الطلبة . . إلا أنى لم أتعرف إلى حقيقة نشاط الإخوان ولم أندمج فى تشكيلاتهم ، واكتفيت بدفع قرشين اشتراكا شهرياً لأؤكد لنفسى أنى صرت عضواً فى هذه الجماعة الكبرى .

بعد أن حصلت على الثانوية العامة انتقلت إلى جامعة القاهرة وكنت مزهواً فخوراً بانتسابى للجامعة ، وبالذات لكلية الحقوق التى تخرج فيها كبار زعماء مصر وعلى رأسهم مصطفى كامل الذى كان يمثل الأسطورة الخالدة فى نظر شباب جيلنا . . . وكنا نترسم خطاه ونحاول أن نقلد أسلوبه ونحفظ حكمه وأمثاله . . وتيسر لى قراءة جميع خطب مصطفى كامل . . كما شغلت بسعد زغلول الذى كنت قد قرأت عنه مؤلفاً ضخما كتبه عباس العقاد . . ، فاعجبت به ، إلا أنى كنت أشعر بأن سعد زغلول يمثل زعامة الكبار أما مصطفى كامل فكان المثل الأعلى للشباب ، وكانت قصة وفاته الدرامية تشدنا للتعاطف معه .

فى السنة الأولى من دراستى الجامعية بدأت التعرف الحقيقى على الإخوان ، حينما استمعت بإعجاب لخطب مصطفى مؤمن وسعيد رمضان ، وهما خطيبان ممتازان . وكان تأثيرهما فى الجماهير قوياً

ومدهشا . . كان مصطفى يمثل الخطيب السياسى وكان سعيد يمثل الخطيب الروحانى . . كان مصطفى يكثر من الاستشهاد بأقوال وأمثال وقصص أجنبية وكان يميل للاغراب فى أسلوبه . . وكان حاداً فى حملاته على الحكومة ومندفعاً لدرجة مخيفة . . ولقد أوقعنا اندفاعه هذا فى بعض المشاكل ، وكانت الحكم والأمثال تتحكم فى أسلوبه وقد تبتعد به عن المعانى التى يقصدها ، فمثلا قال عن اسماعيل صدقى وكان من رؤساء الوزارات المكروهين من الشعب المصرى : إن إسماعيل كان صادق الوعد . . فظن الطلبة بنا الظنون واتهمونا بممالأة صدقى — وخاصة أن صدقى كان قد مر على دار المركز العام وترك بطاقة مجاملة للاستاذ البنا . . وكان السياسى الداهية يستهدف من وراء تصرفه هذا فتنة سياسية يظهر فيها الإخوان بمظهر المؤيدين .. للملك ، ومع هذا فإن أخطاء مصطفى لا تعدل شيئاً إلى جانب الكسب الكبير الذى حققه للإخوان فى شباب الجامعة ، فلقد اجتذب لصفوف الجماعة عدداً كبيراً منهم ، كما أننا لا نستطيع أن ننكر دور مصطفى فى الحركة الوطنية . . أما سعيد رمضان فكان يأتى فى المرتبة التالية وراء مصطفى كخطيب سياسى . . كان كما قلت يمثل الخطيب الروحانى ، وكان أسلوبه المتدفق الغزير يثير انفعال الجماهير . . وكنا نشعر فى أعماقنا أن سعيد يمثل المرشد الصغير فى الجماعة ، وذلك لفرط إخلاصه للمرشد . . أما مصطفى فكنا نشك فى إخلاصه للقيادة . . ولقد تصاعد هذا الشك إلى درجة كبيرة وخاصة بعد أن كسب مصطفى مركزاً شعبياً هائلا على أثر خطابه

المشهور فى مجلس الأمن أثناء مناقشته لقضية مصر . . فلقد غطت أنباء هذا الخطاب على خطاب رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى . هذا الموقف من مصطفى جعل منه زعيما شعبيا مرموقا . . وفى نفس الوقت أثار إشفاق الإخوان . . وكان مصطفى لا يظهر أمامنا حرصه على الولاء للأستاذ ، فلا يتحدث عنه بأسلوب سعيد الذى كان يمعن فى إجلال الأستاذ المرشد ، وتقبيل يده بشغف زائد كما كنا نشعر أن الأستاذ لا يتعاطف مع مصطفى تعاطفه مع سعيد . . بل لقد ذهبت بنا الظنون إلى أن سعيد سوف يخلف الأستاذ فى مكانته كمرشد عام للإخوان . . ولقد اعتمد هذا الترشيح فى نفوسنا على عاملين أولهما قدرة سعيد على الخطابة وثانيهما ما كان يظهره سعيد من ولاء للمرشد .

من خلال خطب مصطفى السياسية وخطب سعيد الروحانية خطوت أولى خطواتى إلى دار الإخوان . . ووجدت نفسى أندمج فى مجتمع جديد فرحت به أيما فرح . . ومن طريف ما أذكره أنى خشيت ألا يسجل اسمى فى هذه الجماعة فألححت على المسئول الإدارى فى الإخوان ليتسلم منى الاشتراك الشهرى ، وكان قرشين ، كما حرصت على تسلم إيصال يثبت عضويتى . . . وجدت نفسى مشدوداً لهذا المجتمع الجديد بأسباب كثيرة أهمها نزعة الشباب الأفندية من أبناء المدن المتفرنجين للدين . . والذين كنت أنظر إليهم من قبل بريبة ، قياساً على أبناء المأمور وطبيب المركز الذين

كانوا يمثلون قمة الارستقراطية والترفع علينا نحن أبناء الريف ، وزاد من ارتباطى بهم أننى وجدت نفسى موضع اهتمام هؤلاء الشباب فقد شدتهم إلىّ لكنتى الصعيدية وبساطتى وانطلاقى . . ولقد استطاعوا بأسلوبهم الرقيق ربطى بإحدى « الأسر » فشعرت فى أحضانها بدفء الأخوة والمحبة والتعاطف . . وكان للأستاذ فريد عبد الخالق رئيس قسم الطلبة أثر كبير فى ربطى بالدار ، فقد كان الرجل يفيض إخلاصا ومحبة لعمله ، إلا أنه دفع بى إلى دائرة الضوء بسرعة ، ووضعنى فى مكانة المعلم ولم أكن قد تهيأت لها ، فى أواخر عام ١٩٤٥ أرسل بى إلى دمنهور كمندوب لقسم الطلبة . . ووجدت نفسى أقف خطيبا فى جمهور ليس بالقليل ، وأتحدث عن الإسلام وعن السياسة والأحزاب ثم يسألنى الجمهور عن أخبار المركز العام وأخبار الإخوان فى الجامعة . . ولا أدرى هل وفقت فى حديثى أم لا ولكنى الآن أشعر أننى تبوأت مكانة لم أؤهل لها من قبل فعكس هذا على متاعب كثيرة ... لقد شعرت بأننى وجدت نفسى التى كانت قد أصيبت ببعض الضياع نتيجة الضغوط العديدة التى تعرضت لها . . ضغوط ولدها ضيق ذات اليد وما صاحبه من مرض وتخلف فى الدراسة .

عدت بهذا الشعور من دمنهور . . ووجدت الطريق متسعا أمامى ، ووجدتنى أتنقل من شعبة إلى أخرى ومن منبر إلى آخر . ثم أجوب

عواصم الأقاليم وأخطب فى الاحتفالات الكبرى . . وكغيرى من خطباء الإخوان تحولت إلى خطيب مسجد ، وخامرنى إحساس بأن لدى قدرة على الارتجال فى كل مناسبة تعرض لى حتى أننى غزوت الأفراح والمآتم . . وكانت خطبى تتسم بالعنف ، وتجنح إلى الهجوم ، ولو سألتنى عن السبب فى هذا لما وجدت إلا تفسيرين . . الأول افتقارى إلى العلم بأصول الدين من تفسير وحديث وسيرة . . . أو على وجه الدقة افتقارى إلى الإحاطة بعلوم الدين . . والتى لم يكن لى حظ منها إلا ما كنت أقرؤه فى صغرى علاوة على بعض المعلومات التى كنت أتلقفها من الأستاذ البنا ، والخطباء الآخرين . الأزهريين منهم ، والذين كان لهم الفضل الكبير فى الحفاظ على الجانب الفقهى والعلمى فى الجماعة ، هذا بالإضافة إلى ما كانت توافينا به المجلات الإسلامية وخاصة مجلة الإخوان من دراسات إسلامية . . هذه السطحية فى الدراسة أوقعتنى فى أخطاء أسأل الله أن يغفرها لى . . وكلما تذكرت ما قلته فى إحدى خطبى فى شعبة من شعب الإخوان ازددت خجلا من نفسى . . . . قلت فى إحدى الخطب « إن نوحا عاش تسعمائة وخمسين عاماً على أحسن الروايات » وطبعا نوح ذكر عنه فى كتاب الله أنه عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً ! !

هذا هو السبب الأول ، أما السبب الثانى فكان مرجعه إلى انغماس شباب الإخوان فى المعركة الوطنية والمعركة السياسية فكنا نكيل

للإنجليز السباب وكان الشعب يستجيب لنا ويصفق بشدة . . وكنا نتحامل على الأحزاب ، وكان الشعب الذى سئم المشاحنات الحزبية يشاركنا شعورنا وانفعالنا . . وكنا نعرض بالمترفين والأغنياء ، وكان هذا يلقى كل ترحيب من العمال والفلاحين ، ولقد وجدت مادة غزيرة لخطبي السياسية من خلال الصحافة ومناقشات الجامعة وخطب الإخوان ، ووجدت جمهورا يستجيب لى . . وكنت أرنو أن أكون كمصطفى مؤمن وسعيد رمضان . . ويظهر أن مصطفى مؤمن لمس منى هذا الطموح والتطلع فهيأ لى فرصة لأخطب فى طلبة الجامعة . . فارتجلت خطبة أظنها كانت بمناسبة وعد بلفور ، هذا كله جعل منى خطيباً ثورياً كما يقولون . .

ودفعتنى الخطابة للزعامة . . وكانت تتجلى الزعامة فى قيادة المظاهرات ، وأظننى كنت موفقا فى قيادة المظاهرات ، فقد توافرت فى عدة عناصر ، منها القدرة على التأثير ، ومنها عدم الاهتمام بمصيرى ، بكل مصيرى . . كنت لا أخاف الموت ولا أرهب السجن ، بل كنت أسعى إليهما لأنهما كانا سيربحانى دينا ودنيا . . وكنت كغيرى أنظر إلى قتلى الجامعة كشهداء والشهيد مصيره الجنة فى الآخرة ، والذكر الخالد فى الدنيا . . لقد كانت كل هذه المظاهرات كما يقولون لعبتنا المفضلة ، وكان إسقاط الحكومات هوايتنا الدائمة . . ومن طريف ما أذكره أننى بالاشتراك مع عز الدين إبراهيم ومحمود الشربينى قمنا بقيادة مظاهرة عنيفة ضد حكومة

النقراشى ، وانتهت المظاهرة بالاصطدام برجال البوليس فى ميدان الجيزة ، ثم وقعت معركة عنيفة بيننا وبينهم ألقى فيها أحد الإخوان من أعضاء النظام الخاص « الجهاز السرى » بقنبلة على رجال الشرطة فأصاب عدداً منهم وقيل أنه قتل أحدهم . . فاضطررنا للفرار ، ويومها لجأت إلى كلية الطب البيطرى ، حيث استعنت بصديق الدكتور محمود نجيب المدرس بالكلية وهو شقيق اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية المصرية ، الذى أعارنى « المريلة » الخاصة به فحشرت نفسى فيها وخرجت من الكلية مخترقا حصار البوليس المضروب حولها — فلم يشك رجال الشرطة فى أننى طبيب كبير فأفسحوا الى الطريق .. وتصادف وجود طالب كنت أعرفه وكان يسكن بالقرب من الكلية فاصطحبنى لمنزله وأكرمنى أيما إكرام ، . ثم استأذنته للخروج من منزله لأراقب مجرى الحوادث ، فاصطحبنى فى عربته ، وقبل أن تتحرك السيارة تقدم منه شاب مهذب وطلب منه مساعدته للوصول إلى مقر عمله فاستجاب له ، وركب الشاب معنا وكان يبدو عليه الضيق والارتباك ، وقال بانفعال : إن الطلبة يزعجوننا كل يوم بمظاهراتهم .. والمشكلة أننا نجرى التحقيق مع المئات منهم ، ولكننا لم نعثر إلى اليوم على زعمائهم . . ثم أردف قائلا آه لو استطاع رجال البوليس القبض على ثلاثة (وذكر اسمى من بينهم) لاسترحنا وأرحنا الجامعة .

كتمت أنفاسى وأنا أستمع لكلمات وكيل النيابة ، وانفجرت ضاحكا بداخلى . وشعرت فى نفس الوقت بمتعة كبيرة لأننى غدوت

مغامراً شأنى شأن « جيمس بوند » ، وزاد الأمر طرافة عندما علمت فيما بعد أن رجال المباحث السياسية شاهدونى يومها برفقة وكيل النيابة هذا فظنوا أنه قد تمكن من استدراجى واعتقالى وبالتالى لم يتعرضوا لى .

ولنكمل قصتنا أو مغامرتنا . . فبعد أن أوصلت وكيل النيابة إلى دار النيابة العامة فى الجيزة . . ودعت الرجل بأدب ، ثم اختفيت فى خوارى الجيزة وأزقتها . . ولكن الأمر لم ينته عند هذا القدر . فقد كانت تنتظرنى مصيدة أخرى . . فبعد أن استأذنت من زميلى . . استأجرت تاكسى وارتديت مريلة الطبيب البيطرى ثم طلبت من السائق أن يقلنى إلى بين السرايات . وقبل أن أصل إلى هناك اعترضنى رجال البوليس ، فقلت لهم بلغة آمرة أننى طبيب بمستوصف بين السرايات ، ومطلوب على عجل ، فتركنى رئيس القوة معتذراً وهو يلعن ويسب الطلبة المشاغبين . . وصلت إلى بين السرايات حيث كنت أنزل ضيفا على زميلى الدكتور سعد السمان الأستاذ بكلية الزراعة وشقيقه الأستاذ فتحى السمان المحامى إلا أننى لم أجد أحداً فى البيت ، فحرت ماذا أفعل ؛ وخشيت أن ينكشف أمرى . . وتصادف ظهور سيارة بوليس من بعد ، فما كان منى إلا أن اقتحمت أقرب منزل منى وكان مملوكا لأحد الإخوان وهو محمد منصور الموظف بالجامعة . . ولم يكن الرجل موجوداً بالبيت ، ومع هذا دخلت المنزل بلا استئذان وجلست فى غرفة الجلوس ، فجاءتنى الخادمة تسألنى عن سبب دخولى المنزل فقلت لها : إننى

صديق الأخ محمد منصور . ولكنها لم تقتنع وذهبت إلى سيدتها تخبرها بأمرى ، ثم عادت إلى وهى تشير بأصبعها الصغير وتقول : إنت حرامى ! ! فقلت لها إننى لست لصا . . ثم طلبت منها استدعاء سيدتها لتكلمنى ولو من خلف ساتر ، فكان رد أهل البيت إغلاق أبواب المنزل الخارجية حتى لا أسرق المنزل وأهرب . . فشعرت بحرج موقفى ، وأخيراً طلبت من الخادمة التى كانت تقف منى فى نجد ، أن تحمل رسالة إلى سيدتها فاستجابت ، وكتبت ورقة صغيرة شرحت فيها موقفى ، فبدأت أعصاب أهل البيت تهدأ . . ثم غادرت المنزل إلى حيث يقيم زميلاى . . وعلمت فيما بعد من الأخ محمد منصور أن أمه كانت وراء هذا التشدد والخوف ، ولم تقتنع بسلامة موقفى ، حتى بعد أن كتبت الرسالة بل ذهبت بها الظنون إلى أننى أحد رجال البوليس المتخفين .

نجوت من هذه الورطة أو المغامرة ، ولكن الأمر لم ينته عند هذا القدر فقد استطاع رجال البوليس أن يهتدوا للمكان الذى كنا نختفى فيه فدبروا هجوما علينا بليل ، إلا أنهم أخطأوا القصد واقتحموا بيت رجل آخر يدعى « السمان » ، وفتشوا منزله ونبشوا كل ركن فيه وطبعاً لم يعثروا علينا إلا أنهم عثروا على مواد سوداء وأصباغ ظنوا أنها كانت تستعمل فى إعداد القنابل ، ولم تكن فى الواقع أكثر من مواد ملونة لصباغة الأخشاب لأن السمان هذا كان يعمل نجاراً .

كل هذا وقع بالقرب منا ، ولم نعلم عنه إلا فى صباح اليوم التالى .

لم نتوقف عن مواصلة العمل التقليدى وهو إثارة الطلبة ضد الإنجليز والحكومة الموالية لهم . . وتمكنا بعد جهد من إسقاط الحكومة . . حكومة النقراشى التى خلفتها حكومة إسماعيل صدقى .. ويظهر أن الرجل استطاع بدهائه ومكره أن يهدىء من ثورة الإخوان بل وثورة الطلبة عموماً ، وذلك بعد أن وعد بالافراج عن الطلبة المعتقلين ، كما وعد بالتجاوز عن التهم المنسوبة إلينا ، وكانت التهم المسندة إلى وحدى أربع عشرة تهمة . . ومن أطرف التهم التى نسبت إلى أننى استعملت دم دجاجة فى إثارة مشاعر الطلبة . . والحقيقة أننى كنت قد استعملت دم أحد زملائى وهو المهندس رجاء أبو السعود ، الذى كان قد أصيب فى إحدى المظاهرات .

على الرغم من إعلان الحكومة أنها لن توقع علينا عقوبات جزائية ، إلا أننا فكرنا فى التحوط لأنفسنا فقرر ثلاثتنا محمود الشربينى ، وعز الدين إبراهيم ، وأنا ، اللجوء إلى المستشفيات حتى إذا غدرت بنا الحكومة استعنا بالأطباء ليحمونا بالمستشفيات من السجون . . وإن أنس شيئاً فلن أنسى قصة لجوئنا للمستشفيات ، لقد كانت قصة مبكية مضحكة كما يقولون .

قلت لزميلى عزالدين والشربينى أن بمقدورى إدخالهما أى مستشفى بسهولة لأننى متخصص فى أمراض الكلى ولى علاقة متينة بالمستشفيات وبعد دراسة

طويلة انتهينا إلى الاستعانة بالدكتور أحمد المسلط الذى كان يعمل جراحا بمستشفى الملك ليساعد عز الدين فى دخول مستشفاه ، أما محمود الشربينى فقررنا إدخاله مستشفى الحميات ، التى كان يديرها المرحوم الدكتور إبراهيم حسن . . وهنا وقعت ملابسات عجيبة ، فبالنسبة لمحمود الشربينى ما إن أدخلناه المستشفى حتى ارتفعت حرارته أو توهمت الممرضة أن حرارته قد ارتفعت فأرغمته على حلق شعر رأسه وجميع جسده بالموسى ثم عزله عن الناس ، والأنكى من هذا أن المستشفى قامت بتبخير منزله . . . لقد كان منظر محمود يدعو للرثاء والضحك وهو يخضع لجميع إجراءات العزل والحرمان من الطعام والشراب .

أما عز الدين فقد اصطحبته لمستشفى الملك بحجة أنه يشكو من التهاب الزائدة الدودية ، وكنت قد لقنته أعراض المرض فقد سبق لى استئصال الزائدة ، وكنا قد تواعدنا مع الدكتور المسلط ليستقبلنا ، ويظهر أن الرجل قد شغل عنا فاستقبلنا طبيب آخر عجــل بالكشف على عز تمهيداً لإجراء عملية له ، وزاد الأمر سوءا أن عز الدين كان قد نسى التشخيص الذى لقناه له ، فأخذ يتخبط مع الطبيب ، ويستنجد بى « لأغششه » ، لولا دخول الدكتور المسلط لكانت فضيحتنا لاتعدلها فضيحة . . وبلباقة الدكتور المسلط تسلم مهمة الكشف على عز ثم أمر بإدخاله المستشفى . . وعلى الرغم من أن الممرضات لم يكن على علم بحقيقة المريض ، إلا أن الشك كان يراودهن لأن المريض كان يبدو ممتلئا بالنشاط والحيوية .

المهم أن عز أكره على الالتزام بأوامر المستشفى . . فحرم عليه الطعام والشراب (ومع هذا استطاع أن يأكل دجاجة بأكملها وهو يختفى تحت البطانية) . . انتهت قصة عز فى المستشفى بسلام فلم يجر المشرط فى جسده . . ولم يحرم نفسه من طعام أو شراب . . أما بالنسبة لى فبعد أن مهدت لدخولى المستشفى ، فوجئت برسول من المركز العام للإخوان يخبرنى وزملائى أن الحكومة قطعت على نفسها عهداً بعدم اعتقالنا ، ففرحنا بالقرار إلا أننا لم ندرك أبعاده السياسية ، ولو سألتنى الآن عن تفسيره ، لقلت أننى من خلال فهمى لشخصية الأستاذ البنا ، فإنه كان يخشى على جماعته من مضطرب السياسة ، ومن الانشغال عن التربية بالصراع الحزبى . . ولو سألتنى عن رأيى الآن فى تفكير الأستاذ لأيدته بلا تحفظ وبلا تردد . . فقد أثبتت الأيام أن الرجال الذين تربوا على أسس إسلامية سليمة عاشوا بها على الطريق وتحملوا المحن بصبر وهدوء . . ولم يعطب منهم إلا القليل . أما الذين دخلوا الإخوان من الباب الحزبى أو باب السياسة بمفهومها الضيق ، فقد اضطربت بهم السبل وتساقطوا كأوراق الشجر فى الخريف .

بعد أن خرجنا من محنتنا بسلام وبانتصار ، وجدت نفسى مندفعا تلقائيا فى هذا الطريق . . اجتماعات متصلة فى قسم الطلبة وخطب فى الشعب ، وتنقل فى الأقاليم ومظاهرات فى الجامعة . . وكتائب ممتعة مع الأستاذ البنا فقد كنا نقضى فيها الليالى بطولها نستمتع بحديثه الروحى العذب ، ونناقشه بصراحة فى كل القضايا التى تعن لنا . .

وليسمح لى القارىء أقف معه قليلا لأحدثه عن تجربة الكتائب فى حياتنا . . والكتائب التى يهمنى الحديث عنها هى التى كنا نلتقى فيها مع الأستاذ البنا . . . لقد كنا نستعد للكتيبة قبل موعدها بأيام . . كانت كتيبتنا تضم ثلاثين شاباً من خيرة شباب الإخوان ، ولو تتبعت تاريخ هؤلاء الرجال الآن وأين هم من المجتمع لاستوقفك الأمر كثيراً ، ويكفينى مثلا أن أعدد الأسماء التالية ثم أترك للقارىء تأمل هؤلاء الرجال وتأمل تاريخهم ، من هؤلاء الشباب : عبد العزيز كامل ومصطفى مؤمن ، وسعيد رمضان ، وحسان حتحوت ، وعوض الدحة ، ومسعد سلام ، وهم من كبار الأطباء . والمهندسون محمود الساعى وأحمد جنينة ، وجمال الشافعى ، ووحيد سالم (شقيق صلاح وجمال سالم) ، ورشاد المنيسى (الضابط السابق بالبوليس) ، والمرحوم أحمد فؤاد (ضابط بوليس قتل على أثر مصرع النقراشى باشا) وعبد الحليم عبد الستار ، والدكتور حامد العجمى ، والدكتور عز الدين إبراهيم ، وعبد الحليم محمد أحمد ، ويوسف عبد المعطى ، وعلى رياض ومحمود يونس ، ومحمود الشربينى ونفيس حمدى ، وكان الأستاذ فريد عبد الخالق يتولى إدارة الجلسة . وكثيرون لا أذكرهم الآن . . . كنا نجتمع فى دار الإخوان بين الفينة والفينة بالحلمية ونقضى ليلة بكاملها بصحبة الأستاذ . . تبدأ جلستنا بتلاوة القرآن الكريم ، ثم يتحدث إلينا الاستاذ فيما شاء له الله أن يتحدث ، وبعد ذلك نتوجه إليه بأسئلة تدور حول سياسة الإخوان العامة وموقف الحكومة منا ، وسياستنا فى الجامعة . . وتنتهى الفترة الأولى من الكتيبة ثم تبدأ الفترة الثانية بعد الفجر مباشرة ،

حيث نتحلق حول الأستاذ ، ويمضى بنا الرجل إلى آفاق عالية يفيض علينا من روحانياته فيسحرنا بصدق أسلوبه ، وصدق حسه ، ونورانيته . . كان يتحدث إلينا عن صدق العلاقة بالله وصدق العبادة ، والإخلاص فى العمل . . والثبات على طريق الدعوة . . وكان يشدنا إلى أصول الدعوة بأسلوب سهل عذب جميل . . وفى نفس الوقت كان يذكرنا بأن العمل للدعوة ليس معناه الانغماس فى معمعة السياسة بشتى صورها . . ولا ينتهى هذا الاجتماع إلا مع مطلع الشمس . . هذه الكتائب كانت تشدنى إلى الأهداف الحقيقية للجماعة . . وكانت فى نفس الوقت تغسل نفسى وتطهرها وتصقلها . . كنت أشعر مع نهاية كل كتيبة أننى ولدت من جديد . . وهذا الشعور كان يشاركنى فيه جميع زملائى . . وكان إحساسنا جميعاً أننا صفوة ممتازة من شباب الإخوان ، وأن الأستاذ يتعهدنا بنفسه . . والذين عاشوا هذه الكتائب ما أظنهم ينسون أنهم قضوا أجمل أيام عمرهم . . ودائماً أحدث نفسى وأمنيها بأمثال كتائب الأمس . . وأقول لو أننا كنا نعرف ما تخفيه الأيام والليالى من أحداث رهيبة ، لاستزدنا من تلك الكتائب ، واستزدنا من فيض الرجل ونورانيته . . إن الأستاذ البنا كان معلما من طراز خاص ، كان قادراً على النفاذ إلى أعماق النفوس ، وإحداث تأثير قوى فى تلامذته . . وكلما سألنى سائل عن رأيى فى الأستاذ البنا قلت له أنه رجل عادى غير متكلف . . سهل المدخل إلى نفوس الناس جميعاً . . شخصيته ممتعة شائقة . . وفى اعتقادى أن الأستاذ البنا لم يجد من

يقيمه تقييما صحيحاً . . وما أظن أن هذا يمكن أن يتحقق الآن نظرا للمحنة العارمة التى تجثم فوق صدر الجماعة لأكثر من ربع قرن ، والحرب الضارية التى سلطت على الجماعة وتاريخها ورجالها . . يضاف إلى هذا أن بعض هؤلاء الرجال قد ضلوا معالم الطريق خوفاً أو طمعا .

أعود فأقول أننى استمتعت لأبعد حد باللقاءات المحدودة التى كانت تتم مع الأستاذ البنا ، وكنت أصبو إلى الاستئثار بصحبته الشخصية كشأن سعيد رمضان الذى كان يبدو لى وقتها كأنه الابن المقرب من الأستاذ البنا ، وكان سعيد يقلد الاستاذ فى كل شىء فى ملابسه ومشيته وحديثه بل وفى طريقة خطبه وحتى فى إشاراته ، وكنت أرى الأستاذ من خلال سعيد شخصية ضخمة وكبيرة وإن كنت الآن أجده أكبر من ذلك بكثير .

أعود إلى مسيرتى فى الإخوان قبل سفرى لفلسطين . . لقد عشت أربعة أعوام من عمرى فى الإخوان أتقلب بين الشعب والمركز العام وقسم الطلبة والجامعات .

عرضت على خلال هذه الفترة مجموعة من المواقف . . أذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر . .

كانت أولاها مشكلة الانشقاق الكبير الذى وقع فى الجماعة وذلك عقب خروج الدكتور حسن إبراهيم والمرحوم أحمد السكرى وآخرين احتجاجا على مواقف نسبت إلى سكرتير الإخوان الاستاذ

عبد الحكيم عابدين واتهام الاستاذ البنا بمساندته لصهره . . هذه المشكلة على الرغم من ضخامتها استطاع الأستاذ البنا بأسلوبه الديمقراطى وبقوة شخصيته أن ينتصر عليها ، أما بالنسبة لى فكنت حائراً بين التسليم بما تقوله القيادة ، وبين مناقشة الموضوع ومحاولة الوصول إلى موقف محدد بشأنه . وأخيراً آثرت السكوت وعدم الدخول فى جدليات إيمانا منى بأن صالح الجماعة يقتضى الالتفاف حول القيادة وعدم الانشقاق عليها ، حتى لا تتفتت جماعة كنت من المؤمنين وقتها بأنها « جماعة المسلمين » التى لا ينبغى الخروج عليها . . أو بصورة أدق فإننى كنت أجارى هذا المفهوم الذى كان يفرض نفسه على بعض الإخوان .

وليسمح لى القارىء أن أقف ولو قليلا عند هذه النقطة . . فلقد عشت فترة من حياتى يغزونى هذا الإيمان ، الإيمان بأننا جماعة المسلمين ، وكان إيمانى نتيجة لانفعال عارض بشخصية الاستاذ وبأحاديثه وبالاسم الضخم الذى غطى أرض مصر كلها ، ولكن ما لبثت هذه الفكرة أن تلاشت من نفسى وذلك بفضل من كانوا يسمون بالشباب المسلم .

هؤلاء الشباب استطاعوا أن يصححوا مفاهيم الشباب الإخوانى فى فترة من الفترات الدقيقة من حياتهم ، إلا أننى كنت أخشى عليهم

أن ينفلتوا من الجماعة شأنهم شأن جماعة « شباب محمد » الذين شكلوا جماعة متطرفة كانت تعارض الإخوان بشدة ، وتتحدى قيادتها ، كنت أخشى أن يصيب هؤلاء الإخوة ما أصاب غيرهم ، ولعل مخاوفى كان لها ما يبررها ، فقد كنت أشعر بأن بعض هؤلاء الإخوة لا يعطون القيادة حقها من التعظيم ، ولا يعطون كلمة الجماعة قدسيتها ، ثم إنهم تجرءوا ورفضوا أسلوب الجهاز السرى ! !

ولكن بعد فترة ليست بالقصيرة بدأت أومن بأفكارهم مع رفضى تجمعهم أو ما خيل إلىّ أنه تنظيم ، لقد تأكد لى بعد ذلك أننا لسنا جماعة الإسلام ، وتأكد فى فهمى أن الأستاذ البنا على قدر علمه وقدرته ليس أكثر من قائد لحركة إسلامية وقائد مخلص لها ، وعالم بأصول دينه وزعيم فذ ، وقدرة خلاقة وموهبة فريدة .. ولكنه ليس قائداً لجماعة المسلمين وليس الإمام الأوحد ، ولا يعنى الخروج عليه أو نقده الخروج على جماعة المسلمين وإمامهم وإنصافاً للرجل فإننى سمعته يتحدث بهذا الشأن فيقول إن جماعة الإخوان ليست أكثر من جماعة من آلاف الجماعات الإسلامية ولا يميزها عن غيرها إلا الفهم الصحيح والعمل والجهاد والجدية .. أخلص من هذا أن هؤلاء الإخوة قاموا بدور تصحيحى فى مفهوم الجماعة والقيادة والسمع والطاعة ، ولقد أفدت كثيراً من أفكارهم وآرائهم فشكر الله لهم على حسن صنيعهم . .

قضية فلسطين

فكر الإخوان من خلال وازعهم الديني والعربي في الاشتراك في حملة فلسطين ، وللأمانة والصدق أقول إنهم تبنوا الكفاح المسلح في فلسطين ، وقد وجدوا استجابة كبيرة من الشعوب العربية والإسلامية ، ثم إنهم قدموا لهذه المعركة بدعاية ضخمة تولتها صحفهم ومجلاتهم وخطباؤهم ومظاهراتهم . .

ولقد ساهمت في الدعاية شأني شأن غيري من الخطباء ، حتى إذا فتح باب التطوع للمعركة عجلت بتقييد اسمي في سجل المتطوعين ، وتحايلت على الجهاز السرى ليأذن لى فى السفر ، فأذن لى عبد الرحمن السندى . . وكان يوماً عظيماً فى حياتى وأنا أحشر نفسى فى الملابس العسكرية ، وأثبت مسدساً فى جانبي . . وتمثلت نفسى وأنا فى مواجهة موشى شورتوك فى معركة حامية . . وإننى تمكنت من قتله ثم قتلت بعد ذلك . وإننى أشارك النبيين والصديقين والشهداء مقاعدهم فى الجنة . . وأن جميع متاعبي فى الحياة الدنيا قد انتهت . . . ثم تخيلت الجماهير وهى تهتف باسمى كشهيد كما كانت تهتف لعبد الحكم الجراحى ورفاقه الذين قتلوا فى سبيل وطنهم . . كل هذه المعانى المفرحة تجمعت فى نفسى ، وصاغت منى مقاتلا لا يهاب الموت . .

وجاءنى موفد من قبل المركز العام ينبئنى بموعد السفر ، وإننى قد اخترت لأصاحب المرحوم يوسف طلعت الذى كان يتولى القيادة

الفعلية للمعركة فى حين كان المرحوم الشيخ محمد فرغل يتولى القيادة العامة فى فلسطين نيابة عن الأستاذ البنا . . وكان يوسف طلعت سيتولى قيادة سيارة نصف نقل محملة بالدقيق والمواد الغذائية . . وكنت سأصاحبه فى السفر ، وفى نفس الوقت كنت سأتولى حراسته ، وحراسة المواد التموينية . . وقد فرحت بهذا الاختيار لأننى كنت معجباً بيوسف لأبعد حد . فقد كان الرجل يفيض إخلاصاً لدعوته ، وتفانياً فى خدمتها . . ثم إنه كان من الرعيل الأول الذين حملوا لواء الدعوة فى الإسماعيلية . . وعلى الرغم من بساطة ثقافته ، فقد كان واسع الأفق متفتح الذهن ، وكانت تتوافر فيه صفات القيادة بأجلى معانيها .

ليلة سفرى آثرت أن أبيت عند زميلى الأستاذ سعيد رمضان الذى كان يسكن فى بيت مجاور للمركز العام للإخوان . . وبكرت فى الصباح استعداداً للسفر ، ولكنى فوجئت بالأستاذ البنا وهو يطالب منى إرجاء السفر ، فحزنت حزناً شديداً ، ولكنى لم أشأ أن أخالف أمر رجل لم نتعود من قبل مخالفته حباً فيه ، وتقديراً للسمع والطاعة التى جبلنا عليها . . وعدت إلى بيت سعيد أنتظر أوامر أخرى ، وبعد عشاء اليوم التالى أرسل إلى الأستاذ البنا رسولا برسالة لا أزال أذكرها : اذهب إلى الإسماعيلية لتعزى فى بديلك . . وفسر لى حامل الرسالة ما حدث ، قال لى : إن يوسف طلعت اصطحب معه شاباً آخر من الإسماعيلية ليقوم بالحراسة بعد أن أرجأ الأستاذ سفرك . . وأن السيارة التى استقلاها انكفأت بهما وتحطمت بالقرب من الإسماعيلية وقتل فيها المرافق ونجا يوسف من الموت بأعجوبة .

هذه القصة على الرغم من بساطتها تكشف لنا من شفافية الرجل ، وهى من قبيل كرامات الصالحين .

ذهبت إلى الإسماعيلية فى رفقة الأستاذ البنا ، ثم ركبنا سيارة كبيرة انطلقت بنا عبر سيناء ، وكانت السيارة تضم عددا من قادة الإخوان ، وبعضاً من المجندين . .

وصلنا معسكر النصيرات حيث كانت تعسكر قوة الإخوان المسلمين بقيادة الشيخ محمد فرغل ، فاستقبلتنا القوة أحسن استقبال ، واحتفت بالقائد العام أيما حفاوة ، ولبث الرجل فينا أياماً يزودنا بتوجيهاته ، ويناقش خطة العمل مع كبار القادة ،وكانت خطة الرجل هى العمل المحكم ، وتجنب المغامرات التى قد تعرض قواته للهلاك . . ثم عاد إلى القاهرة .

عشنا فى هذا المعسكر فترة رائعة ممتعة ، صلاة لوقتها ، وتهجداً فى جوف الليل ، وتدريباً محكماً ، ودراسة للمستعمرات وخطط العدو استعداداً للمعارك . . كنا نعيش عصر الصحابة وهم يواجهون أعداءهم ، وكانت قضيتنا مع اليهود واضحة فى نفوسنا ، ولم يكن يلابسنا أدنى شك فى عدالة قضيتنا ، فاليهود أعداء لديننا ، ومتآمرون عليه من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم هم مغتصبون لأرض يملكها مسلمون ويقع فى قلب هذه الأرض المسجد الأقصى ثانى القبلتين ، وكان شاهدنا الناطق المهاجرون الذين كان يضطرهم اليهود للهرب من ديارهم والهيام فى الصحارى ، وإننى وإلى اليوم لا أنسى مشهد

المهاجرين فى أسمالهم البالية ، وهم يحملون الرضع ، ومشهد الحبالى والشيوخ وهم يتحاملون بعضهم على بعض بحثاً عن مأوى لهم . . وكنا نسمع عن قصص بشعة وحوادث لا إنسانية كان يرتكبها اليهود مع العذارى والحبالى . وكان يتولى كيد هذه الحوادث عصابات اليهود شتيرن وزفاى ، وكان اسم الإرهابى بيجن - رئيس وزراء الصهاينة - من أشهر الأسماء وأكثرها ضراوة .

أعود فأقول إننا كنا نعيش فى جو مفعم بالروحانية ، وكنا فى نفس الوقت نتأهب للمعركة ، بل كنا نستحث القيادة لتسمح لنا بالإغارة على المستعمرات الرابضة فى قلب الوادى .

ثم سنحت لنا فرصة لضرب أقرب مستعمرة إلينا وهى مستعمرة ديروم - أو دير البلح - كما كانوا يسمونها - وعلى الرغم من فرط حماسنا ، وعلى الرغم من اجتهاد قيادتنا فى رسم خطة الهجوم على المستعمرة إلا أننا لم نوفق فى اقتحامها ، وانتهت المعركة باستشهاد اثنى عشر شاباً من خيرة شبابنا .. وعلى الرغم من إيماننا الكامل بأن إخواننا قد استشهدوا فى سبيل الله إلا أننا حزنا عليهم حزناً شديداً .. ولقد كان لنا عتب شديد على القيادة لأنها لم تأخذ كافة الاحتياطات .. ولو سألتنى اليوم عن رأيى لقلت لك ، إنه كان أولى بنا أن نبحث عن رجال تمرسوا فى مثل هذه الحرب ، ليوجهونا التوجيه الصحيح ، إلا أننى ألتمس العذر لقادتنا وخاصة بعد أن أسترجع ما كان من أمر القائد المحنك أحمد عبد العزيز وهذه المستعمرة فقد أغار عليها بقوة كبيرة من المشاة بعد أن مهدت لهم المدفعية وانتهت المعركة باستشهاد أكثر من ستين مقاتلا .

على الرغم من فشلنا فى هذه المعركة وفشل المرحوم أحمد عبد العزيز إلا أننا استفدنا كثيراً من هذا الفشل فى المعارك التى استمرت أكثر من عام .. فلقد سجلنا فى هذه المعارك انتصارات باهرة على اليهود وخاصة بعد أن لحق بنا القائد الفذ ، والمعلم الفاضل ، الأستاذ محمود عبده الذى كان قد أوفد على رأس قوة كبيرة إلى معسكر قطنة فى سوريا حيث استكمل تدريب قوته ، ونزل إلى ميدان المعركة فى أوائل مايو ١٩٤٨ ، واتخذ له معسكراً فى النصيرات بحرى ، وحدث تغيير فى قيادة قوتنا حيث تولاها الأستاذ كامل الشريف — وزير الأوقاف فى الأردن — وكان شاباً متفتح الذهن شجاعاً ، وقائداً موهوباً . وعلى الرغم من أنه كان حديث عهد بالإخوان ، إلا أن خبرته بالأعمال الحربية وكياسته حملتنا على احترامه والالتزام بأوامره .

استمرت المعارك الحربية قرابة عام ، وكانت لنا فيها صولات وجولات مشهودة ، وحتى بعد دخول الجيش المصرى والجيوش العربية ميدان المعركة استطعنا أن نثبت قدرتنا على القتال ، ولقد شهد لنا جميع قادة الجيش بصلابة عودنا ، كما شهدوا لنا بحسن الخلق والثبات ، حتى أن قائد المعركة اللواء أحمد فؤادصادق كان إذا شعر بضعف الجيش فى معركة استدعانا لمساعدة الجيش ، وأذكر أنه فى معركة تبة ٨٦ المشهورة ، بعد أن منى الجيش بهزيمة منكرة استدعانا اللواء صادق ، فأغرنا على العدو ، وتمكنا من دحره فى حين لم تكن قوتنا تتجاوز الأربعين رجلا .. ولقد منحنا اللواء صادق نياشين فاخرة بعد أن أثبتنا تفوقنا على العدو .

كما أذكر أنه فى أعقاب معركة العوجة الشهيرة والتى منى فيها الجيش بهزيمة منكرة ، طلب منا القائد نعمة الله أن نقتفى أثر اليهود فى القصيمة لنؤمن مؤخرة الجيش ، وقد ذهل قائد الجيش من شجاعة الإخوان وهم يتحملون مشقة طريق وعرة تفصل ما بين الطريق العمومى والقصيمة ، وكانت الطريق محفوفة بجبال شاهقة وعرة المسالك .. ومما أذكره أن قائد اللواء نعمة الله قال لى : إننى لا أدرى كيف أكافئ الإخوان ، قلت له : نرجوكم ألا تعتقلونا .. فعجب الرجل من جوابى .. وتشاء المقادير أن تنتدب فصيلة من لوائه لحراستنا فى معتقل رفح الذى أعد ليستقبلنا بعد أن انتهت حرب فلسطين ..وطبعاً لم يكن للرجل أدنى علاقة باعتقالنا .. بل صدرت إليه الأوامر بحجزنا حجزاً عسكرياً فى فلسطين خشية أن ننزل إلى مصر ، ونساعد إخواننا الذين كانوا يتعرضون للاعتقال والتعذيب فى السجون على يدى إبراهيم عبد الهادى وأعوانه من رجال البوليس السياسى .

ومن أشهر المعارك الإخوانية فى فلسطين .. معركة بئر السبع وقد أشرف على هذه المعارك القائد محمود عبده ، ومن أجمل ما فعله فى بئر السبع أنه حفر حول المدينة خندقاً كذلك الذى حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم حول المدينة ، ولقد استعصى على العدو الصهيونى عبور هذا الخندق .. ولم تكتف قوة الإخوان بحماية المدينة ، ولكنها كانت تغير على المستعمرات المرابطة بالقرب من بئر السبع .. وتقطع الطرق المؤدية إليها .. وقد استشهد بعض الإخوة فى هذه المعارك وقد ذكرت فى كتاب شهداء على الطريق قصة الشهيد على صبرى .

ولقد تمكنا من حصار القدس الجديدة من عدة مواقع وضيقنا عليها الخناق ، وقطعنا عنها التموين ، ولقد ترامت إلينا إشارة سرية صادرة من المستعمرة « نحن الآن نشرب بول الحمير فأنقذونا » وتحضرنى « نكتة » صدرت من مقاتل يهودى كان يرابط داخل إحدى الدشم قال اليهودى : «يا إخوان إننا نعلم أنكم تحبون الاستشهاد لتسعدوا فى الآخرة ، ونحن نحب أرض فلسطين لأننا نؤمن أنها أرض المعاد فاخرجوا لنا لنقتلكم فتدخلوا الجنة ، ونعيش نحن فى فلسطين وبذلك تتحقق السعادة لنا ولكم» من هذه الفكاهة يتبين مدى خوف ورعب اليهود من قوة الإخوان .

ومن أشهر معارك الإخوان ومغامراتهم أنهم تمكنوا من تحطيم حصار الفالوجة ، وتحملوا الأهوال لإنقاذ القوة المصرية التى أحكم اليهود حولها الحصار ، ومن عجب المقادير أن قوة الإخوان بقيادة المرحوم معروف الحضرى هى التى عملت على إنقاذ القوة التى كان من بينها جمال عبد الناصر والذى لقيت ولقى معروف الحضرى على يديه الويل والعذاب .

ومن أروع المواقف التى سجلها الإخوان فى فلسطين ، أنهم حاولوا إنقاذ فلول جيشنا الذى منى بهزيمة منكرة عند العوجة ، وأذكر هذه القصة على سبيل المثال . . فقد خرجت مع مجموعة من شباب الإخوان لاستكشاف مواقع اليهود بالقرب من العوجة .. وكان معى عبد الرحمن البنان وهو شاب لو كتبت عنه كتاباً لما وفيته حقه . . وفجأة تقدم منى ثلاثة من الجنود ومعهم ضابط لا يحمل رتبة .. وقال لى الضابط

وهو يرفع يديه مستسلماً ويقدم لى مسدسه : مستسلم .. فقلت له : لمن ؟ قال : لكم .. ففهمت من الرجل أنه تصور أننا من اليهود .. فقلت له : نحن مصريون ، قال : لاتسخروا منا .. أنتم يهود ، وأشار إلى عبدالرحمن لأنه كان شديد بياض البشرة فطمأنه عبد الرحمن .. وفرح الرجل أيما فرح بعد أن عرف أننا من الإخوان ثم لوح بيديه فأقبل علينا أكثر من مائتى جندى مصرى كانوا يختبئون من خلف الأحجار ..فقدمنا لهم ما لدينا من طعام وشراب ، ولما سألناهم عن سبب استسلامهم قالوا لنا : إنهم لم يطعموا منذ ثلاثة أيام وأن ذخيرتهم نفدت . . ثم قمنا بنقلهم على دفعات إلى مواقع الجيش المصرى .

قد يعترض على قارئ ، أو يتهمنى بأننى أنتقص من شجاعة الجيش المصرى فى فلسطين .. ولكنى فى الواقع أتحدث عن فترة ما بعدالهدنة وبعد أن تآمرت القوى السياسية ضد الجيش المقاتل فى الميدان ، وأودعت سر خيانتها له فى الأسلحة والذخيرة الفاسدة ، فقد أصيب الجيش بنكسة نفسية أذهلته ، وحطمت معنوياته ، أما ما قام به الجيش من أعمال وماخاضه من معارك قبل الهدنة وقبل الذخيرة الفاسدة فكان عملا بطولياً رائعاً .. إن الجيش المصرى والشعب المصرى يستمتع بقدرة هائلة فى القتال إذا وثق من قادته ووثق من الهدف الذى ينشده .. وحرب أكتوبر تشهد بشجاعة وثبات وصبر الجندى المصرى لأن الجندى كان قد أولى ثقته لقيادته . . وعلى العكس من ذلك فإن خزى يونيو سنة ١٩٦٧ يعكس نفسية الجندى المصرى الذى لم يلمس الأمانة والصدق فى قيادته .

استمرت المعارك الحربية قرابة عام فى فلسطين ، وكان لهزيمة الجيش فى الميدان أثرها الكبير فى نفسية الشعب المصرى ، فقد بدأ السخط يعم الشعب المصرى كله ، وقد عبر الإخوان عن هذا السخط بضرب المؤسسات اليهودية فى مصر ، وحشد قوى الشعب فى مواجهة حكومة النقراشي والملك .. فاتفق الاثنان على حل الإخوان واعتقال قيادتها ، ومعظم أعضائها .. فكان جواب الإخوان على الاعتقال قتل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشي باشا . . وورثه فى الحكم إبراهيم عبد الهادى الذى انتقم للنقراشي بقتل مرشد الإخوان المرحوم حسن البنا .

ولقد روعنا أيما روع لمقتل مرشدنا ومربينا حسن البنا ، وشعرنا أن خطراً ما يحدق بنا ، ففكرنا فى تسجيل احتجاجنا على مقتل المرشد فكتبنا رسائل حادة للحكومة .. وفكرنا فى إلقاء السلاح وخاصة أن المعركة كانت قد توقفت بعد إعلان الهدنة الثانية ، كما فكرنا فى عبور صحراء النقب إلى الضفة الغربية ومن هناك نصل إلى الأردن ثم ندبر أمرنا .. بل فكر بعضنا فى الإغارة على الأردن بالسلاح .. ولم تمهلنا الأحداث كثيراً فقد فوجئنا ذات يوم بمن يدعونا لإعداد أنفسنا للعودة لمصر ، لأنه لم يعد لنا من ضرورة للبقاء فى الميدان ، وخاصة بعد توقف العمليات الحربية ، وعلى الرغم من أن الفكرة قد راقتنا ابتداء إلا أن الشكوك قد راودتنا بعد أن طلب منا تسليم السلاح .. ولم يكن أمامنا خيار لأن رفض تسليم السلاح يعنى العصيان العسكرى فى الميدان ، وهذا عمل غير وطنى ثم إن القوانين العسكرية تواجه مثل هذا الموقف بصرامة ، ولقد ساعد فى سرعة

استسلامنا ثقتنا الكاملة فى اللواء أحمد فؤاد صادق الذى كان يرعانا حق الرعاية ، ويدافع عنا بصدق ، حشرنا فى عربات عسكرية كانت قد أعدت لنا خارج معسكر البريج بغزة ، وكان يوماً حزيناً بالنسبة لنا وبالنسبة لإخواننا من ضباط الجيش الذين كانوا متجاوبين معنا لأبعد حد ، ومضت بنا العربات عبر الطريق المؤدى إلى رفح ، إلى أن توقفت أمام معسكر كبير كان يشغله الإنجليز من قبل ، وطلب منا أن نترك العربات لنبيت ليلتنا فى هذا المعسكر ثم نستأنف سفرنا للقاهرة فى اليوم التالى، ومن طريف ماقيل يومها أنه قد أعد لنا استقبال حافل فى مصر كذلك الذى استقبل به أبطال الفالوجة ، المهم أننا وضعنا أثقالنا فى هذا المعسكر . وفوجئنا بعد ساعات من إقامتنا بالمعسكر أننا محاطون بحراسة من الجيش . وعلمنا فيما بعد أن قوة من اللواء الخامس التى يرأسها اللواء نعمة الله هى التى أسندت إليها مهمة الحراسة وطبعاً لم يكن الرجل راضياً عن هذا الموقف المشين من الحكومة .

أدركنا وقتها أننا رهن الاعتقال شأننا شأن إخواننا الذين كان قد أرسل بهم إلى معتقل الطور ، ومعتقل هايكستب ، أو زج بهم فى السجون .

عز علينا هذا الموقف من الحكومة وبالذات من الجيش ولم ندر ماذا نفعل ! !

وفى اليوم التالى لاعتقالنا زارنا اللواء فؤاد صادق ، وكان لطيفاً فى خطابه معنا . قال لنا : إن الحكومة أمرته بإرسالنا إلى معسكر

الطور لنلحق بإخواننا المعتقلين ، ولكنه رفض تسليمنا وأصر على إبقائنا ضيوفاً لدى الجيش .. وأنه سيفرج عنا قريباً ، ثم إنه أصدر أوامره بالإبقاء على رتبنا العسكرية ورواتبنا .. بل إنه منحنا نياشين تقديراً لجهودنا فى الميدان ، وكان نصيبي نوط الجدارة الذهبي .

لبثنا فى هذا المعسكر قرابة ستة أشهر ثم نقل الجميع إلى معسكر آخر بالعريش أمضوا فيه قرابة ستة أشهر أخرى .. أما بالنسبة لى فقد استدعيت للقاهرة للتحقيق معى بعد ستة أشهر من إقامتى فى معسكر رفح ولسوف أعود لأذكر طرفاً من قضيتى الخاصة ..

أما ماذا كان من أمر هذا المعتقل ! ! لقد كان معتقلا مرفهاً للغاية ، كنا نعيش فى بحبوحة من العيش والحركة والعبادة ، والتعبير عن الرأى . . ويكفى أن أقول إننى كنت ألقى درساً بعد عصر كل يوم ، كما كنت ألقى خطاباً كل يوم جمعة وكنت أتكلم بصراحة تامة . . إلا أن هذه الحرية لم تكن لتنسينا ما كان يعانيه إخواننا فى السجون والمعتقلات الأخرى ، وما كانت تعانيه أسرالمعتقلين ، ولذلك قررنا اقتطاع جزء من رواتبنا لإعانة الأسر المنكوبة .. هذا الموقف لم يكن ليشبع طموحنا فى الجهاد والمشاركة فى محاربة الحكومة التى اعتدت على مرشدنا وإخواننا ، وأقفلت الشعب التى كنا نتلقى فيها تعاليم الدعوة ، ففكر بعضنا فى إعداد أنفسنا لمعركة ضد الحكومة ، وحاولنا بناء جهاز سرى ليعمل بعد الإفراج عنا ، ومن طريف ما أذكره أننا ونحن نتعاهد على الجهاد

لم نجد مسدساً ليكون إلى جانب المصحف ونحن نأخذ العهد والبيعة فاستبدلناه بساطور . ولقد تلاشى هذا الجهاز بعد أن طال بنا الاعتقال شأنه شأن الجهاز الذى كان قد اكتشف فى عهد إبراهيم عبد الهادى .

والواقع أن معتقل رفح كان مدرسة مفتوحة ، وكان معلموها وتلامذتها من بيننا ، وقد استفدنا الكثير منها ، ولكننا كنا حبيسين داخل أفكار وتنظيمات لم نحاول تطويرها أو الخروج منها . . من ذلك أننا كنا نؤمن أن كل ما فعله إخواننا فى مصر على حق ، وكل ما فعله ويفعله خصومنا على باطل . . وكانت بيدنا مستندات وفيرة منها اعتقالنا بعد أن أدينا واجبنا على أحسن وجه ، ومنها قتل الشهيد حسن البنا ، واعتقال الإخوان وإغلاق دورهم ، وبالنسبة للقضايا العامة ، كانت مأساة الأسلحة الفاسدة التى كانت من أسباب هزيمة الجيش فى فلسطين ، وماتعانيه مصر من فساد الأحزاب وتعفن الملكية ، كل هذه المستندات كانت تؤيد موقفنا . . ولذلك لم نفكر فى مراجعة موقفنا ، ودراسة أخطائنا لنعمل على تصحيح مسارنا ، ثم إنه لم تكن أمامنا قيادات لها وزنها يمكن أن نواجهها بالتساؤلات التى فى أنفسنا .

لقد عشنا معتقل رفح فى جو طاهر طيب ، ولم يعكر صفونا إلا بعض مواقف . . وليسمح لى القارئ أن أطرح مشكلة بسيطة أو مشكلتين وقعتا لنا ، وكيف تم علاجنا لها بعد معاناة فى الفهم والفكر .

الأولى أنه وقعت جريمة سرقة من أحد المعتقلين من غير الإخوان ، فطالب بعض الإخوان بتوقيع العقوبة الشرعية عليه مستندين إلى أننا

نعيش مجتمعاً إسلامياً ، وأن من واجبنا تطبيق العقوبة ، وكان اعتراضى واعتراض آخرين أننا لسنا أكثر من جماعة تسعى لإقامة الشريعة وليس لنا حق فى تطبيقها إلا إذا كان زمام الحكم بأيدينا .

وأما الواقعة الثانية فقد وقعت من أحد المعتقلين ، فقد استدرجه أحد الجنود وأغراه بتعاطى المخدرات ، ولما ثبتت عليه التهمة ، وأسندت إلى مهمة الحكم عليه وقعت عليه عقوبة اجتهادية وهى جلده عشر جلدات ، وكان البعض يطالب بتوقيع العقوبة الشرعية عليه وهى حد شارب الخمر . . ولكنى دافعت عن وجهة نظرى بأننا لسنا أكثر من جماعة من المسلمين ولسنا حكومة إسلامية ، ثم إن الحشيش ليس كالخمر وإن كنت أطالب رجال الفقه أن ينظروا إلى الحشيش باعتباره خمراً لأنه مسكر .

* * *

تهمة جديدة

بعد ستة أشهر من اعتقالى فى رفح ، جاءت رسالة عاجلة من النيابة العمومية إلى القوات المسلحة ، بإرسالى مخفوراً إلى القاهرة ، وبأسلوب غاية فى الأدب طلب منى أن أحزم حقائبى ، وأستسلم لجنديين من رجال الجيش ليصطحبانى فى قطار إلى القاهرة ، فسلمت الأمر لله ، وكنت — بفضل الله — غاية فى الشجاعة ، وأصدق القارئ القول أنى كنت أتمنى محاكمتى لأقف فى قفص الاتهام وأزلزل القاعة بخطبة عصماء ! !

وصلت إلى سجن مصر حيث كان يتجمع عشرات من شباب الإخوان المتهمين فى قضايا عديدة ، فاستقبلت استقبال الفاتحين وخاصة أنى كنت أرتدى الثياب العسكرية . . وعوملت فى السجن أفضل معاملة . . وفى اليوم التالى استدعيت للنيابة وكان يحقق معى أحد رؤساء النيابة المشهورين ، وكان الرجل حريصاً على تبرئتى من الاتهام الذى كان موجهاً إلى ، وهو أننى كنت فرداً فى خلية سرية ، فقلت له إنى متغيب عن مصر منذ أكثر من عام . . ونجح الدفاع وتقرر الإفراج عنى . . ثم أرسل بى إلى سجن الموسكى حيث قضيت فيه أربعة أسابيع . . كانت من أقسى معتقلات ما قبل الثورة . . إلا أنه كان يخالطها كثير من المضحكات المبكيات التى كانت تخفف عنا .

لقد عذبنا فى هذا السجن بالنور ، فقد ثبت مصباح كهربائى قوته

خمسمائة شمعة فى سقف زنزانة لا تعرف الشمس إليها طريقاً . . لا تطفأ ليلا ولا نهاراً . . ولقد حاولنا مراراً كسرها لنعيش فى الظلام فهو خير من وهج الضوء .

وكان يساكننا فى غرفتنا مجموعة من اللصوص ، والمتشردين، وشاب سورى كان متهماً بأنه من الإخوان ، وشيوعى ، وقد نشأ بيننا وبين هذا الخليط من الناس تعارف وتواد باستثناء الشيوعى الذى كان يرفضنا وكنا نرفضه ونرفض سلوكه . . ومن أطرف ما عرض لنا فى هذا السجن أنه استدعى واحد من غير الإخوان . فغاب عنا ليلتين ، ثم عاد إلينا مجرداً من ثيابه باستثناء سروال قصير وقميص مهلهل . وكعادتنا حاولنا استدراجه لنعرف ما نزل به ، وبعد إلحاح منا وتحايل قص علينا قصته . . ولولا أننى عشتها بالكامل وتثبت من وقائعها لما صدقت الرجل . . قال الرجل . . وهو فى الخامسة والثلاثين من العمر . . لقد أحببت فتاة بعد أن تعرفت إليها فى الطريق العام ، ولكنها تأبت على وقالت إنها تحب أن يكون خطيبها ضابطاً . . فقلت لها إننى ضابط . فقالت وأين ثيابك العسكرية ؟؟ فأخبرتها بأننى ضابط مباحث ، فطلبت منى صورة بملابسى العسكرية ، ففكرت فى الأمر ، وهدانى حبى إلى فكرة جهنمية ، وهى أن أتسلل إلى بيت زوج ابنة خالى وآخذ رداءه العسكرى ، وألبسه ثم تؤخذ لى صورة أهديها للخطيبة . . ونجحت فى اختلاس الرداء ولبسته ، وكنت بالقرب من ميدان لاظوغلى ، حيث يتجمع المصورون فجلست على كرسى بالطريق العام وأعد المصور عدته لتصويرى . . وفجأة وجدتنى من

يربت على كتفى ويطلب منى أن أصحبه إلى وزارة الداخلية . . وهناك وجدت جميع رجال الوزارة وكبار الضباط ، وسألونى بلسان واحد : كنت ستقتل رئيس الوزارة أم من ؟ — وكان من سوء حظ الرجل أن النقراشى كان قد قتل فى بهو وزارة الداخلية — ولما أنكرت جردونى من ثيابى وظلوا يضربوننى أكثر من يومين متتالين ، ولم يتركوا سبيلى ويرسلوا بى إلى السجن ، إلا بعد أن تأكدوا من صحة أقوالى .

هذه القصة وأمثالها التقينا بالكثير منها ، وهى إن تدل على شىء فإنما تدل على تخبط هذه الأجهزة السرية ، ورغبتها فى إثبات وجودها لتنال فرصاً مالية أو رتباً وظيفية .

انتهت فترة سجن الموسكى وحملت إلى معتقل هايكستب حيث قضيت ستة أشهر مع الآلاف من أمثالى . وكان يجاورنا فى المعسكر بعض زعماء اليهود الذين كانوا قد اعتقلوا كنتيجة للحرب بيننا وبين اليهود فى فلسطين . . إلا أنهم كانوا منعمين فى معتقلهم وذلك بفضل رشاواهم وقدرتهم على الوصول إلى الجهات العليا . . فى هذا المعتقل كنا نعيش كجماعة متآخية متراحمة ، وكان الغنى يفيض على الفقير ، والقوى يأخذ بيد الضعيف ، وكنا نتدارس أمور ديننا ودعوتنا . . ولكننا كنا نعيش فترة يتم بعد مقتل الأستاذ البنا ، وعدم تمكننا من تنصيب خلف له ، وكنا نتهامس بخلفاء كالشيخ الباقورى ، والأستاذ صالح عشماوى ، والأستاذ عبد الرحمن البنا شقيق الأستاذ البنا ، وعبد العزيز كامل وسعيد رمضان . . أما عن مناقشاتنا الفكرية فكانت تصدر عن

بعض الشباب الذين كانوا يؤمنون بالتربية المكثفة . والإعداد العلمى قبل التفكير فى السلطة ، والإعداد المسلح لها . . وكانوا يلمزون الجهاز السرى الذى كانت له قدسية فى نفوس الإخوان .. أما بالنسبة لى فكنت مشبعاً بالأسلوب العنيف فى مواجهة الأعداء ، والأعداء فى نظرى هم الإنجليز واليهود والملك والأحزاب .

أما كيف تم الإفراج عنى فلذلك قصة طريفة لا بأس من ذكرها . . كانت الحكومة قد أسندت قيادة المعسكر لضابط جاهل لا يكاد يفرق بين الجامعة والجوامع . . وكان هذا الضابط كثير العراك معنا ، وقد تسبب لنا فى « علقة جماعية » . . فلما سقطت حكومة إبراهيم عبد الهادى وتولى النحاس الحكم بدأ الرجل يعمل لنا حساباً ، وبدأنا نخوفه ونهدده. وذات يوم اقتحم الطلبة غرفته وهددوه إذا لم يفرج عنهم ، فاتصل بوزارة الداخلية فما كان منها إلا أن أمرت بالإفراج عن جميع الطلبة .

عشنا فترة عاطفية بعد الإفراج عنا ، وكنا نتوق لعودة الإخوان والعثور على مرشد ليقودنا . . وبعد جهد كبير استقر الرأى على تنصب المستشار حسن الهضيبى مرشداً عاماً للإخوان ، فأوليناه طاعتنا واحترامنا ، وكان الرجل وقوراً ، وصادقاً ، وعفاً . . ولم يكن حريصاً على المنصب حتى أنه فكر كثيراً فى الاستقالة . . إلا أنه لم يكن يملك القدرة على مخاطبة الجماهير كما كان يفعل الأستاذ البنا ، ثم إن كبر سنه لم يمكنه من بذل نشاط كبير كما كان يفعل الأستاذ البنا ، ومع هذا فإننا رضيناه مرشداً وقائداً .

معركة القناة

ولم يمض على عودة الإخوان إلا شهور حتى وقعت أخطر الأحداث فى تاريخ مصر ؛ وكان لها أكبر الأثر فى حركة الإخوان . فقد قامت حكومة الوفد بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وعلى الرغم من أن الحكومة لم تكن تفكر فى مواجهة الإنجليز مواجهة عسكرية إلا أن الشعب كان على استعداد لاتخاذ موقف مسلح ضد الإنجليز ، وفتح الباب عن آخره ليجرب الإخوان حظهم فى معركة جديدة . . ونظراً لأنى سجلت هذه المعركة فى كتاب « صفحات من جهاد الشباب المسلم » فإننى أحيل القارئ إليه ، وأكتفى هنا بإلقاء الضوء على دور الإخوان فى هذه المعركة .

وفى تجرد كامل أقول : لقد حمل الإخوان عبء هذه المعركة ، تحملوها بجرأة وشجاعة فائقة ، ولولا قيادة الإخوان الحكيمة ، وحسن تدريبهم ، وسابق خبرتهم فى فلسطين ، لما حدث كل ما حدث ، ولربما أقول وبأمانة : ولما خرج الإنجليز فى هذه الفترة الوجيزة من مصر ، ولربما أقول : ولما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، لأنها قامت على أنقاض عرش تداعى تحت ضربات شباب الإخوان فى القناة ، وبعد أن وهن عظم الإمبراطورية البريطانية فى مصر كنتيجة لضربات عمر شاهين والمنيسى وشهداء الإخوان وغيرهم .

قد يقول القارئ: إنك تنسب الفضل كل الفضل للإخوان فى المعركة ضد الإنجليز — أقول: إننى وإن كنت أؤكد هذا إلا أننى لا أنكر مشاركة الشعب عمالا وفلاحين ، وشارك رجال الجيش فى شخص الضباط الأحرار ، وضباط البوليس . . لا أنكر فضل هؤلاء ، لكنى أقول إن قيادة الإخوان الحكيمة الشجاعة كان لها الطول الأكبر فى المعركة .

لقد بدأ التدبير للمعركة فى دار الإخوان المسلمين المؤقتة فى الظاهر ، وكانت البداية فى قسم الطلبة ، ثم اشترك الجهاز السرى وكان يمثله المرحوم يوسف طلعت ، واشترك جهاز البوليس والجيش وكان يمثله صلاح شادى ، وتولى قيادة المعركة من الإخوان ، الأستاذ محمود عبده ، والمرحوم عبد القادر عودة ، والمرحوم يوسف طلعت . . وقد افتتح الإخوان العديد من مراكز التدريب فى الإسماعيلية ، وأبو كبير والتل الكبير ، واتخذوا من بيوتهم مراكز لتجميع القوات المحاربة . . وعلى الرغم من احتجاجى الكثير على الجهاز السرى للإخوان فى ممارساته الداخلية ، إلا أننى أذكر له دوره العظيم فى معركة القناة . . فقد جند الجهاز السرى جميع رجاله العاملين على ضفاف القناة لضرب المعسكرات المجاورة ، وأظننى ذكرت فى كتابى بعض هذه العمليات مثل ضرب معسكرات « أبو سلطان » وضرب قطارات السكة الحديد . . ولقد آن الأوان لأفصح عن أسماء ذكرتها رمزاً فى كتاب القناة : من هذه الأسماء نفيس حمدى والدكتور محمود الشادى ، وعلى رياض ،

و « الشيخ يوسف القرضـــاوى » . و « الشيخ احمد العســـال »
والمرحوم حسن عبد الغنى ، ويوسف على يوسف ، وعلى صديق ،
وعبد الرحمن البنان، ومحمد عاكف ، وصلاح جلال ، وياسر عرفات،
ومكاوى الشيخ . . وعصام الشربينى ، ويوسف عبد المعطى ، وصلاح
عبد المتعال ،وأحمد فراج ، ووائل شاهين ، ومحمد المنياوى ، وصالح
الحديدى . هؤلاء من تذكرت ، وهم فى الواقع فى غنى عن الذكر
والتعريف ، ولكنى أحببت أن أكون شهيداً عليهم ، فقد لا يتمكن
غيرى من تذكرهم ، وإنى لأعتذر لمن لم تسعفنى ذكراهم .

هؤلاء الشباب وغيرهم هم الذين أشرفوا على تدريب شباب الجامعات
والمدارس ، وتدريب الإخوان فى المعسكرات . . ثم قاموا بأنفسهم
بشن حملات رائعة ضد المعسكرات البريطانية . . وما أظن مواطناً
مصرياً لا يتذكر معركة التل الكبير فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٢ التى
استشهد فيها عمر شاهين وأحمد المنيسى وستة آخرون ، وأسر ستة من
شباب الجامعة . . ثم ما تبع ذلك من تشييع جنازة عمر شاهين التى
هزت وجدان الأمة ، وأثارت حفيظتها ضد الإنجليز والعرش .

وكان من نتيجة هذه الثورة الشعبية العارمة ، أن تجمعت الأمة
كلها حول الإخوان المسلمين ، وكانت كلمتهم هى الكلمة المسموعة
فى الأمة كلها ، وهذا ما دعا الملك وأحزابه وأحلافه ، إلى تدبير
مؤامرة إحراق القاهرة ، بعد جنازة عمر شاهين بأسبوعين . . والتآمر
على الحركة الشعبية النظيفة .

إن ثورة سنة ١٩٥١ هى الثورة الشعبية الصادقة فى تاريخ مصر بل وفى تاريخ الأمة العربية ، وأخشى أن أقول أن ما تلاها من ثورات فى كل العالم العربى لم ترق إلى مستوى هذه الثورة .

أما قصتها فقد رويت جانباً منها فى كتابى صفحات من جهاد الشباب المسلم . وفى كتاب شهداء على الطريق .

* * *

المواجهة بين عبد الناصر والإخوان

حديثى عن الثورة وعلاقتها بالإخوان لن يكون صريحاً بالقدر الذى كنت أرجوه لأن ثورة ٢٣ يوليو لا تزال تحكم مصر ، وإن تغيرت القيادات ، وحكمى على هذه الثورة لن يكون حكماً دقيقاً لأننا فى موقف الخصم منها ، ومهما كانت ثقتى فى صدق قولى ، فإن من حق الآخرين أن يتشككوا فى هذا الحكم . . ولذلك سوف أكتفى بذكر مشاهداتى الخاصة وانطباعاتى ، وللقارئ أن يقبل منها ما يقبل ويرفض ما يرفض . .

لقد كانت الثورة أمل الشباب كله ، وكان يتمثلها فى انتفاضة شعبية ضد الإنجليز وضد الملك وأحزابه . . وكان الشباب يتطلعون إلى مصطفى كامل جديد وسعد زغلول آخر . . فلما أيأسهم ظهور هذا الثائر تطلعوا إلى الجيش باعتباره القوة المسلحة القادرة على تنفيذ الثورة . . ولذلك ألقوا بكل ثقلهم فى يد الجيش بمجرد أن سمع أول بيان من رجال الثورة . . وكان تفاعلنا مع قادة الثورة كبيراً من خلال شخصية محمد نجيب لأنه كان من لون وطعم وطبيعة الشعب . . ولذلك أولوه كل ثقتهم . . ولقد تيسر لى العديد من اللقاءات مع هذا الرجل وكان معظمها فى احتفالات عامة . . ولقد وقفت منه موقفاً متشدداً فى احتفال عام عندما أمسكت بيده وقلت له : إن يد الجامعة التى تصافحك اليوم كانت تصفع الحكام من قبل .. ثم قلت له : لكم

وددت أن تستشهد فى معركة ضد الإنجليز كما استشهد عمر شاهين . .
ولم يغضب منى الرجل بل دعانى لمقابلته فى مجلس قيادة الثورة الأول .

أما جمال عبد الناصر فقد كنت أشعر بأنه عسكرى الطبيعة ، غامض الشخصية ، وقد جمعتنى به الظروف فى مؤتمرات عامة تحدثت فيها طويلا ، واستمع إلى باهتمام كبير ، حتى أنه همس فى أذنى وهو يعانقنى بحرارة بعبارة فيها إطراء على شخصى وعلى ما ذكرته فى خطابى ، وكانت معظم خطبى التى ذكرتها أمامه تطالب بالتضامن مع الجيش فى مواجهة الإنجليز ، وتطالب بضرب الأحلاف العسكرية ، والتزام سياسة الحياد بين الشرق والغرب ، ولاأنسى التعبير الذى كررته مراراً أمام جمهور لا يقل عن مائة ألف « لا شرقية ولا غربية ولكن يكاد زيتها يضيء » . . ثم ألححت فى خطبى على إقامة حياة نيابية جديدة ترفض الحزبية . . وكانت آخر هذه الخطب فى أوائل يناير سنة ١٩٥٤ .. ومما أذكره أن رجال الثورة أرسلوا إلى من يطالبنى بعقد مؤتمر فى الجامعة يوم امتحانى فى الليسانس فاستجبت لهم وناديت بقطع المفاوضات مع الإنجليز .

كل هذه المواقف وعشرات من أمثالها جعلتنى قريباً من رجال الثورة ، وكنت آمل أن تنتهج الثورة نهجاً إسلامياً .. وكنت آمل كذلك أن تتضامن الثورة مع الإخوان وخاصة فى حربنا مع الإنجليز .. ولكن الأيام خيبت ظنى ، فلم يلتزم رجال الثورة بالخط الإسلامى ، ووقع صدام مروع بين جمال عبد الناصر والإخوان لم ينته إلا بموته .

وبتجرد كامل أستطيع أن أقول إن طبيعة عبد الناصر لم تكن تقبل المشاركة فى السلطة أو تقبل الرأى المعارض ، فكان يؤمن بنفسه وبفكره فقط .. ولذلك فإنه صادم جميع الأحزاب السياسية ، وصادم الإخوان ، وصادم جميع رجال الثورة فلم يبق على واحد منهم إلى جواره .. إن هذا التحليل لشخص عبد الناصر لا يفتقر إلى حجج أو أسانيد .. فهو واقع يشهد به الجميع .. ثم إنه تفرد فى اتخاذ المواقف السياسية التى يراها ، فهو مثلا حمل الأمة على دخول حرب سنة ١٩٥٦ ومنينا بهزيمة قلبها لنصر ، ثم هو الذى حمل الأمة لتحارب فى اليمن ، ثم هو الذى خلق هزيمة سنة ١٩٦٧ وما أمرها .. وعلى الصعيد السياسى هو الذى حالف الإنجليز سنة ١٩٥٦ ، ثم هو الذى هادن أمريكا إلى أن ظهرت قضية بناء السد العالى، ثم غير اتجاهه إلى الاتحاد السوفييتى وحالفه ومكن لجيوشه وخبرائه وأعوانه من الشعب والجيش .

هذا العامل النفسى لعب دوراً كبيراً فى صراع جمال عبد الناصر مع الإخوان ، وتسبب للأسف الشديد فى إضعاف شوكة حركة إسلامية شابة ، كما تسبب فى وهن وضعف وتفتت ثورته ، وانعكس كل هذا على مصر والأمة العربية .. وها نحن نجتر آلام الهزائم المريرة ، وتدخل القوى الكبرى فى المنطقة العربية ..

سيعترض القارئ ويقول : هل يعنى اتهامك هذا أنك تبرئ ساحة الإخوان من الخطأ .

أقول : لا لن أبرئهم من الخطأ — ولكن لو وضع خطأهم فى كفة

وما أصابهم من مآس فى كفة أخرى لكان كمن يضع ريشة فى كفة وجبلا من حديد فى الكفة الأخرى .. إن ما تعرض له الإخوان من عذاب جسمانى ونفسانى لا يمكن تخيله . . ولسوف أذكر بعضاً منه فيما بعد ، وهذا البعض لا يكتب أكثر من حرف فى سجل من ملايين الصفحات .

عيب الإخوان أنهم فكروا فى التصدى لعدوان عبد الناصر المسلح بالسلاح .. وكان أولى بهم ألا يواجهوا انقلاباً مسلحاً بسلاح مثله فالمعركة غير متكافئة .

قد يعترض البعض : وماذا يفعلون ؟ هل يستسلمون ؟ ؟

أقول: كان الأولى أن نتدزع بالصبر حتى نفوت عليه غرضه ، وأن نتصدى له بالكلمة أو بأى أسلوب آخر .. فإن هذا كان سيفقده الحجة فى عدوانه علينا وسوف نكسب الرأى العام معنا .

وهناك مأخذ آخر على الإخوان وهو أنهم كانوا يطالبون عبد الناصر بالحكم بالإسلام .. ونفس هذا المطلب غير مقبول لأن الإسلام لا يتنزل من إرادة شخص غير مؤمن بتطبيقه ، والأولى أن يطلب منه أن يترك الحركة الإسلامية لتنتشر فى الأرض حتى يجتمع عليها الناس ومنهم تكون الحكومة .

بعد هذا التحليل يمكننى أن أتناول الأحداث التى شهدتها بنفسى وأكتفى بذكر أهمها :

معركة الجامعة

فى اليوم الثالث عشر من يناير سنة ١٩٥٤، وهذا اليوم كانت الجامعة كعادتها تحتفل بذكرى شهدائها فى معركة التل الكبير .. فى هذا اليوم وقعت أحداث كان لها أثرها الكبير ونتائجها الخطيرة فى علاقة الثورة بالإخوان المسلمين .. وحتى أكون أميناً وصادقاً فى أحكامى فإننى سأذكر مقدمات الأحداث التى سبقت هذا اليوم .

لقد كان الجو مشحوناً للغاية بين جمال عبدالناصر والاخوان ، وكان سوء الظن قد بلغ القمة ، وخاصة بعد أن استغل جمال عبدالناصر الخلافات التى نجمت عن اختيار الأستاذ الهضيبى مرشداً للإخوان وما صاحبها من صراع بين المرشد والجهاز السرى الذى كان عبد الرحمن السندى يصر على الإبقاء عليه تحت قيادته ، وكان من رأى الرجل وكما حدثنى كثيراً أن الجهاز السرى يشكل خطراً على الإخوان ، بل كان من رأى الرجل — وهذا الحديث كان قد جرى بينى وبينه قبل الثورة — أنه ليس من سياسته أسلوب الثورات وأنه يفضل أخذ الأمور بالتروى والحكمة .. ولعل عمل الرجل بالقضاء لفترة طويلة حمله على تبنى هذه السياسة ، إلا أن الوضع تبدل بعد أن نهدتنا الثورة باستعمال القوة ، فقد تشكلت أجهزة سرية فى الجيش والبوليس والمدنيين ما أظنها كانت خافية على الرجل .. لكن هل كان

الرجل يديرها بنفسه . وهل كان يرضى عن تصرفاتها التى وقعت فيما بعد ؟؟ إننى لا أستطيع أن أصدر حكماً فى هذا الشأن ، وأترك لغيرى وممن لهم علاقة بالأحداث التى وقعت بعد ذلك أن يقولوا كلمتهم ويقولوا رأيهم كذلك حتى تستفيد الأجيال من كل ما هو حسن وتتجنب الأخطاء .

هذا الجو المشحون بسوء الظن والشك قدم للأحداث التى وقعت فى ذلك اليوم وفى الأحداث التى تلته .

أما الحوادث أو الوقائع التى سبقت هذه الأحداث . فمما أذكره منها أنه عقدت سلسلة من الاجتماعات فى دار الإخوان المسلمين بالحلمية فى قسم الطلبة . وكانت كلها تعد للاحتفال الذى سيعقد فى الجامعة ، وما قد يصاحبه من احتمال وقوع صدام بين الإخوان المسلمين وهيئة التحرير والمنظمات الأخرى .. وتصادف وجود نواب صفوى زعيم الشباب المسلم فى إيران ، وكان الشاب بالغ الحماسة والشجاعة ، وكان من أعداء الشاه الألداء . فطلب منه بعض إخواننا إلقاء خطاب فى الجامعة . وكنت أخشى من تطرفه فنصحت بعدم إشراكه فى الاحتفال . ولكنهم لم يستمعوا لنصيحتى ، ثم إن شباب الإخوان بدءوا فى إعداد أنفسهم لمواجهة هيئة التحرير إذا بدأت بالعدوان .

واجتمع فى حرم الجامعة عشرات الآلاف من الطلبة . وارتجل نواب صفوى خطاباً ثائراً حماسياً . ثم تكلمت بعده وكنت كشأنى

حاداً فى كلامى لكننى لم أنل رجال الثورة بسوء بل طالبتهم بالإسهام فى المعركة ضد الإنجليز ، كما طالبتهم بالحكم الديمقراطى ، وكررت ندائى بالتزام الحياد بين الشرق والغرب .

وبينما كنت ألقى خطابى همس فى أذنى أحد حرس الجامعة ونبهنى بأن خصومنا سوف يدخلون من باب خلفى فى المبنى الذى كنت أقف على سلمه ، ويعتدون على ، فهمست إلى الإخوة ليأخذوا حذرهم وقاموا على الفور بإغلاق الباب وحراسة مؤخرتنا ، والعجيب أن الضابط الذى كان يرتب للمؤامرة فقد أعصابه وثار فى وجه الجندى منذراً إياه بالويل وأشد العقوبات .

قبل أن ينتهى الخطاب سمعت طلقات نارية صادرة من سيارة كان يستقلها بعض قادة منظمات التحرير ، ثم حدث هيجان شديد وتضارب وصياح ضد الإخوان ومع الإخوان ، وتمكن الإخوان بفضل تنظيمهم من سحق المؤامرة ، ولاذ أفراد المنظمة ومن كان معهم من رجال المباحث السرية بالفرار .

عدت إلى بيتى حزيناً على هذه النهاية المؤلمة التى انتهى إليها الاحتفال الذى كان يذكرنى وزملائى بشهداء أنبل وأعظم معركة وطنية وهى معركة التل الكبير .

ولدى وصولى بيتى وجدت زوجتى فى رعب شديد لأنها سمعت طالباً جامعياً يقول لآخر بصوت مرتفع، لقد أطلق الرصاص على حسن فسقط على الأرض وكسرت ثناياها .. ومضت ساعات ثقيلة سوداء كنت أتوقع منها أحداثاً تبشر بالسوء . . وهذا ما حدث .

اعتقال يناير سنة ١٩٥٤

كنت أتوقع أمراً لكنى لم أكن أتوهم ما حدث لى تلك الليلة ، فقد أغارت على بيتى شلة من رجال المخابرات ، وانتزعونى من زوجتى التى لم يكن قد مضى على زواجى منها أكثر من ستة أشهر . . كنت رابط الجأش ثابت الخطى ، وأنا أمضى إلى عربة الشرطة العسكرية ، ومضت بى العربة إلى السجن الحربى ١١١ ،السجن الذى سجل تاريخه مأساة مصر كلها ، المأساة التى أودت بتاريخ أمة عظيمة وحطمت كبرياءها ، وعصفت بكل معانى الإنسانية — هذا السجن ليس كمثله باستيل فرنسا ، وليس كمثله معسكرات الاعتقال فى عهد الستالينية فى روسيا ، بل وليس كمثله المستعمرات التى كان يساق إليها المستعبدون فى أفريقيا . إنه قطع من نار جهنم خرت على الأرض ، ولكنها سلطت على الوطنيين وأصحاب الرأى الحر ، والمؤمنين بكل فكر وعقيدة لا تقدس شخص عبد الناصر .

لقد أفرغ الإنسان — وآسف إن قلت إنه إنسان — ولكنى كنت أراه أمامى برجليه وعينيه وقوامه إنساناً . . أفرغ هذا الإنسان كل رصيده من الزور والفجر والحقد فى هذا السجن . فلم يأبه لأى شىء ، ولم يأذن للإنسانية ولا للخلق ، ولا للدين ، ولا لأى قيم أياً كانت هذه القيم أن تحكمه . . هذا السجن شهد على مدى حكم

عبد الناصر من العذاب مالا يخطر على بال إنسان ، وما لم يتخيله أى مخرج سينمائى . لقد كان زبانية السجن للأسف الشديد من بعض رجال الجيش ضباطاً وجنوداً ، وكان ضحاياه ضباطا مثلهم وجنودا ومواطنين كان لهم رأى ، أياً كان هذا الرأى ، رأى لا يرضاه عبد الناصر — كان منهم شيوعيون ، ومسيحيون ، ويهود ، وحزب مصر الفتاة ، وحزب الوفد والإخوان المسلمون . ولقد أخرت ذكر الإخوان لأن مالاقوه جب ما قبلهم فصاروا هم شعار ضحاياه لأنهم من حيث العدد كانوا أضعاف أضعاف الآخرين ، وكذلك من حيث العذاب . . كما شهده الكثير من رجال وزعماء الأمة العربية شهده مثلا زعماء اليمن الذين كانوا من طلائع الثوار ضد الأئمة اليمنيين المفسدين . . وكان عبد الناصر يستعملهم ضد خصومه فلما تجرءوا وأيدوا آراء لا تعجب عبد الناصر أرسل بهم إلى جهنم مصر .

وما وقع لعشرات الآلاف من المصريين وغير المصريين فى السجن الحربى ، لاتتسع له الآلاف من المجلدات، فكل ساعة قضاها كل مواطن فى هذا السجن يمكن أن تشكل كتاباً أو فيلماً سينمائياً مرعباً .

وليسمح لى القارئ أن أقول إنه لو أردنا أن نقيم حكم عبد الناصر ، فإن أول ما أضعه أمام المؤرخين هو السجن الحربى ، والسجون التى تناسلت منه ومضت على طريقه وما أكثرها . . وبعد ذلك ليكتب المؤرخون آلافاً من الكتب فى آلاء ومآثر عبد الناصر . . فإنها مهما بلغت فلن تزن ريشة واحدة فى كفة ميزان ، تحمل كفته الأخرى جبلا من حديد .

وما سأذكره هو سطر من عشرات الكتب كان بإمكانى تدوينها لولا ضعف ووهن شيخوخة ، وخشية أن تقضى الذكرى المرعبة على هذه البقية الباقية من حياتى . . ثم حرصى على أن أخفف عن القراء وقع هذه الآلام .

والسطر الأول كان هيناً ليناً بالنسبة لما سأكتبه فيما بعد ، فقد كان الاعتقال الأول ترويضاً لنا على المعتقلات الأخرى ، وكان بالنسبة لنا تمهيداً لما لقيناه فيما بعد .

أعود إلى أول الطريق فأقول : لقد ساقونى إلى السجن الحربى وألقوا بى فى زنزانة ضيقة ، كان بها سرير وقلة ماء ، وأقفل على الباب ، ولم أكن أسمع ولا أرى ما يجرى حولى ، اللهم إلا أبواب زنزانات تفتح وتغلق ، وكان من حسن حظى وفضل الله على أن جعل القرآن أنيس هذه الوحشة ، فقد تيسر لى مصحف صغير استطعت أن أخفيه من الحراس . . فعشت معه طيلة أيامى ، وقد كنت أختم المصحف كل ثلاثة أو أربعة أيام . . لقد أمضيت فى هذه الزنزانة ثلاثة أسابيع لا أرى ضوء الشمس ، ولا أتنفس الهواء النقى ، ولا ألتقى بزملائى إلا عندما يؤذن لنا فى قضاء حاجتنا ، وكان محظوراً علينا الكلام بأى شكل من الأشكال .

بعد يومين من اعتقالى فتح باب زنزانتى بعنف ، ودفع إلى بصحيفة يومية ، وقال لى الضابط بسخرية : مبروك عليك .. وكانت المفاجأة عندما شهدت صورتى فى الصفحة الأولى عبارة عن رأس من بين

عشرة رءوس أخرى أذكر منها الأستاذ الهضيبي ، والأستاذ عابدين . .
ثم بيان ضخم عن حل الإخوان المسلمين . . قرأت البيان فإذا به مجموعة من المغالطات والأباطيل والحجج المختلفة . . خلاصتها أنه عقد اتفاق بيني وبين الأستاذ عابدين وآخرين من الإخوان واتفقنا على التآمر على الحكومة وأن احتفال الجامعة كان بداية التآمر .

أدركت وقتها أن مؤامرة ما تدبر لنا . وأننا معرضون لمخاطر شديدة . بعد أيام من اعتقالنا نودى على مجموعة من قادة الإخوان — كنت من بينهم — وعزلنا عن بقية الإخوان فيما يسمى بالشفخانة . فأيقنا أننا ماضون إلى محاكمة مصطنعة ، وكنا نعامل معاملة طيبة لكن لم يكن ليسمح لنا باللقاء الثنائى أو الجماعى . . وكانت روحنا المعنوية عالية . وثقتنا فى أننا على حق لا حدود لها .

وعلى خلاف ما كنا نتوقع لم يحقق معنا ، وبالتالى لم نقدم للمحاكمة ، بل خففت عنا القيود وسمح لنا بأكثر من فسحة يومية ، ثم سمح لنا بالصلاة جماعة فى إحدى الزنزانات . .

بمجرد أن التقينا فكرنا فى اتخاذ موقف لنواجه به هذا الافتراء . ونرد به على عبد الناصر ، وانتهى بنا التفكير إلى أن نكتب رسالة إلى صحيفة المصرى نطالب عبد الناصر ، بأن نبتهل نحن وإياه أمام الله لنجعل لعنة الله على الظالمين . وتمكنا من تسريب الرسالة إلى الخارج ، ونشرت الرسالة ، وكان لها وقعها العنيف على عبد الناصر ومن كانوا على شاكلته من رجال الثورة . . وكان رد فعلها علينا تقفيل

الأبواب وحرماننا من الفسح اليومية . . لكنهم لم يمدوا أيديهم إلينا بالسوء لأن الأوامر لديهم كانت تقضي بمعاملتنا بالحسنى . . ومما أذكره أن أحد الضباط تجرأ ولكم أحد المعتقلين ، فاعتذرت عنه الإدارة بشدة . . وهذا يدلنا على أن أوامر التعذيب والقتل كانت تتنزل من الجهات العليا وهى لم تكن غير شخص عبد الناصر . . الذى كان كما أعتقد غير مستعد لمواجهة حركة الإخوان بالشدة ، لأن معركته مع محمد نجيب وبعض خصومه من ضباط الجيش كخالد محي الدين لم تكن قد انتهت ، ثم إن الأحزاب السياسية كانت تقف له بالمرصاد . . فلما تمكن من الإحاطة بنجيب وضرب الأحزاب وتخويفها أدار الكأس بكل مرارته على الإخوان .

حدثت تقلبات فى خارج السجن ، وذلك بعد أن قاد المرحوم عبد القادر عودة مظاهرة ضخمة ضد دكتاتورية الحكم ، وطالب رجال الثورة بالحياة البرلمانية والإفراج عن المعتقلين السياسيين ، وقد ناصره فى هذه الانتفاضة الشعبية رئيس الجمهورية محمد نجيب . . ووجد عبد الناصر نفسه محاطاً بكراهية شديدة من الشعب والجيش ففكر بدهائه فى التراجع أمام الإخوان . . فأصدر قراره بالإفراج عنا جميعاً ، وكان ذلك بعد ثلاثة أشهر من اعتقالنا .

• • •

أحداث سنة ١٩٥٤

خرجنا من المعتقل مجللين بهامات النصر ، وكان الشعب فرحاً بالإفراج عنا ، ولكن عبد الناصر كان يخشانا أيما خشية ، ولذلك لم يفوت يوماً واحداً فى إعداد العدة لجولة أخرى . . وقد تمكن بدهائه من عزل نجيب عن الشعب ، كما تمكن من استرجاع سلطانه على الجيش ، كما شكل له جهازاً محكماً من الحرس الوطنى . . ثم بدأ يلمز الإخوان ويسىء إليهم ، كما بدأ يجرب قوته فاعتقل أفراداً عاديين من الإخوان ثم أفرج عنهم .

كما بدأ يراقبنا بشدة فى بيوتنا وفى أعمالنا ويضيق علينا أسباب الرزق . . وفطن الإخوان للمؤامرة فبدأوا يعدون عدتهم لمواجهة حاسمة مع عبد الناصر . . فاستعادت الأجهزة السرية تشكيلاتها وتنظيماتها . . وكنا نشعر أننا فى موقف المدافع عن النفس والمال . . وعبثاً حاول العقلاء تخفيف ضغط عبد الناصر . . فقد كان الرجل يشعر أن معركته مع الإخوان معركة حاسمة بالنسبة لحكمه ومستقبله السياسى ، وقد عبر عنها فى إحدى جلساته « إذا لم نتغدى بهم فسوف يتعشون بنا » وأعتقد أن شخصية عبد الناصر كانت كافية لخلق هذه المعركة لأنه كان يؤمن بالحكم الفردى المطلق الذى لا ينبغى أن يشاركه فيه أحد . . وأعتقد أن أعداء الأمة وأعداء الثورة وأعداء الإخوان

ساعدوا عبد الناصر بالدسيسة والدعاية ليخوض معركة ضد أكبر قوة وطنية فى مصر . قوة ضربت اليهود فى فلسطين وضربت الإنجليز فى القناة ، وأثارت الشعوب العربية والإسلامية ضد المستعمرين .

ولقد كان لى دور ما فى هذه المعركة ، ولسوف أذكره بأمانة وصدق دون انتصار لنفسى أو تحامل على غيرى .

فى يوم الجمعة السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩٥٤ ذهبت لصلاة الجمعة فى مسجد الروضة بالمنيل ، وجلست بين المصلين ، وكنت على غير استعداد لإلقاء الخطبة فى ذلك اليوم ، إلا أنه كانت تراودنى معان وددت أن لو أخاطب بها الناس وخاصة الإخوان منهم ، وكنت أميل ما أكون لتهدئة الجو ما بين الحكومة والإخوان ، كانت هذه المعانى تملأ على نفسى ومشاعرى ، ويبدو أن المقادير كانت تمهدنى لأن أنقل مافى نفسى إلى الناس ، وجاءت الفرصة فقد اعتذر خطيب الجمعة عن إلقاء خطابه أو تغيب ، هذا مالم أذكره الآن ، فاتجهت الأنظار إلى ، فاستعرت طربوش جار لى وهو مفتش بوزارة التربية ، وصعدت المنبر ، وكان خطابى موجهاً للحكومة بالنقد لأنها تعتقل الشباب المسلم ، وفى نفس الوقت وجهت إليها نصائح لتلتزم طريق الإسلام لأنه أجدى لها وأنفع ، وحذرتها من سلوك مسلك كمال أتاتورك . . كما تحدثت عن سياسة الحياد بين الشرق والغرب وحذرتها من الدخول فى أحلاف عسكرية . . وتحدثت إلى الجمهور الذى كان يستمع إلى بانصات كبير وطالبتهم بالالتفاف حول الحركة

الإسلامية . . كما نصحتهم بعدم استعمال العنف مع رجال البوليس الذين كانوا قد ضربوا سياجاً عنيفاً حول المسجد ، وأحاطوا به من كل جانب .. ولقد خاطبت رجال البوليس ورجوتهم ألا يصطدموا بالمصلين ، وأن يدخروا رصاصهم لمواجهة عدونا جميعاً الإنجليز .

انتهيت من خطابي بعبارات حماسية ألهبت مشاعر الشباب ، وما أن انتهيت من الصلاة ، حتى أمسك بي ضابط مباحث ، وعلى الرغم من نصيحتي إياه بعدم استثارة الجماهير إلا أنه دفعني بيده فانتبه الناس له ، وبدأوا يكيلون له اللكمات ، ثم حاولوا تخليصي منه بالقوة ، وكدت أهلك بين الاثنين . . وحدث هرج كبير في ميدان الروضة وأطلقت النيران لإرهاب المصلين ، ثم هدأ الموقف بعد أن قبض علي ، وعلى من نالتهم يد رجال الشرطة من المصلين والمارة . . وسيق بي إلى قسم الروضة . . وفي المساء نقلت مع زملائي إلى سجن القلعة الرهيب ، والذي شهد مذبحة المماليك المشهورة . . وهناك زج بي وبزملائي في زنزانات انفرادية . . ثم بدأ التحقيق معنا ، والواقع أن النيابة كانت ملتزمة بالقانون ، ولم ينلني ولا زملائي أي سوء باستثناء تهديدات مبطنة من أحد ضباط الجيش .

في اليوم التالي أرسل بنا إلى سجن مصر ، بعد أن قررت النيابة حبسنا احتياطياً على ذمة القضية ، وهناك لقينا معاملة عادية ، ثم جاءتنا عريضة اتهام وكانت العقوبة المطلوب توقيعها علينا السجن ثلاثة أعوام لمحاولة قلب نظام الحكم بتحريض الناس باستعمال آلات مكبرة ،

فأعددت دفاعاً قوياً وتمثلت نفسي وأنا ألقى بخطاب سياسى أمام المحكمة والجماهير تتطلع إلى باهتمام والصحف تنشر لى وتصورنى . . ولم أكن أفكر فيما سيحكم به على لأننى كنت أعلم أن الأحكام السياسية حبر على ورق ، وهى تتغير بتغير الظروف . .

ثم تغير الوضع بالكامل بعد وقوع حادث المنشية الذى ادعى فيه أن الإخوان دبروا لاغتيال عبد الناصر فى ميدان المنشية بالإسكندرية. وإننى هنا لست بسبيل تحقيق هذا الحادث وما لابسه من ظروف ، ولكنى سأتناول آثاره بصفة عامة وما نابنى منها بصفة خاصة .

وحتى يستجيب القارئ لمنطقى فى معالجة الأمور لأذهب معه إلى تصور أن كل ما قاله عبد الناصر بشأن حادث المنشية صحيح . . فهل مجرد الشروع فى قتل إنسان أياً كان هذا الإنسان يستدعى صب أشد ألوان العذاب على فريق من أبناء الأمة ، عذاب مس ما لا يقل عن خمسين ألف مواطن ومن ورائهم أسرهم وآباؤهم وأبناؤهم وزوجاتهم . فعبد الناصر فرد من أفراد الشعب ، وما قام به من تجميع ضباط الجيش وتغيير نظام حكم ليس عجباً من الأمر ، فقد حاول الكثير من قبله القيام بهذه التضحية ولقوا حتفهم أو سجنوا وعذبوا . فإن كان قد حالفه هو وزملاؤه الحظ فهل هذا يسبغ عليه صفة الألوهية أو النبوة أو القدسية . . إن عمر بن الخطاب أوصى قبل موته ألا يقتل إلا قاتله . . فمن يكون عبد الناصر .

أظن القارئ يشاركنى هذا القول . . ويتفق معى أنه حسب ادعاء

عبد الناصر — أن بعض الإخوان اتفقوا على قتله وأن أحدهم شرع فى القتل ، ولم يصب عبد الناصر بسوء . . فلم يعدم ستة من خيرة رجال مصر ؟ ؟ ومن خيرة علمائها ! ! ومن خيرة مجاهديها ! ! إن الشيخ محمد فرغل والشيخ يوسف طلعت كانوا من طليعة المحاربين فى فلسطين والقناة ، حاربوا اليهود والإنجليز ، ولم يمدوا يدهم بالسوء للمصريين . . ثم إنهم حاربوا عهود الفساد فى عصر الملك وأحزابه واعتقلوا وعذبوا ، فهم وطنيون ثوريون محاربون . . والأستاذ عبد القادر عودة والأستاذ إبراهيم الطيب من خيرة المحامين فى مصر ، وكان أولهم قاضياً مشهوداً له بالعدل والكفاءة والعلم ، وقد ألف أعظم كتاب عن التشريع الجنائى الإسلامى المقارن ، وقد استقال من القضاء ليلتحق بموكب الحركة الإسلامية . . والآخرون الذين أعدموا كانوا من المجاهدين فى فلسطين وممن لهم سابقة فى كل ميادين العمل الإسلامى والوطنى فهل يعدمون لأنهم اتهموا كما زعم عبد الناصر بالشروع فى قتل رجل قام بانقلاب ضد ملك ثم بانقلاب ضد قائد الانقلاب محمد نجيب واستولى على السلطة . . وهذه كلها يمكن أن يطلق عليها اتفاقات جنائية وشروع فى قتل . . إن جميع القوانين الوضعية المعمول بها فى الدول الغربية والشرقية والعربية لا تقضى بعقوبة الإعدام فى جريمة الشروع فى القتل . . فإذا أضفنا إلى هذا أن القضاة الذين أسند إليهم الحكم فى القضية كانوا من رجال الثورة ، فهم بحكم وظيفتهم خصوم . . فكيف يكون الخصم قاضياً . . فإذا أضفنا لهذا التعذيب الذى لقيه المتهمون ، والذى شاهدت بشاعته فى يوسف طلعت الذى

تحول إلى كومة لحم مختلط بالدم والصديد من آثار العذاب فماذا يكون الحكم ؟ ؟

لقد حاول عبد الناصر اتخاذ حادث المنشية بداية لمعركة ضارية ضد جماعة الإخوان المسلمين . . وقد سخر لها كافة وسائل الإعلام ، وجند لها رجال الجيش والبوليس . . حتى المغنين والمغنيات سخرهم فى هذه المعركة . . لقد استدرجت أم كلثوم لتغنى قصيدة كتبت لها وأعدت ، واستعملت هذه الأغنية لاستثارة غضب الشعب علينا ولاستثارة الذين كانوا يقومون بتعذيبنا . . فقد كنا نجبر على أن تغنى هذه القصيدة صباح مساء فى السجن الحربى ونحن نضرب . بالسياط . . وقد اختارنى الخبيث حمزة البسيونى لأكون الأركسترا ، كما اختار الهضيبى ، ومنير الدلة وبعض قادة الإخوان لهذا الغرض . . كان مطلع القصيدة « يا جمال يا مثال الوطنية . . بنجاتك يوم المنشية » فى هذا الجو المشحون بالدعاية ضد الإخوان بدأ مشوار العذاب والآلام والأحزان والدماء . . ولم ينته إلا بنهاية عبد الناصر .

أما عن مشاهداتى . . وما لقيته من آلام فسأكتفى بذكر طرف منها . . سبق أن قلت أننى كنت مسجوناً على ذمة التحقيق فى قضية مسجد الروضة . . وكنت مقدماً لمحكمة عادية . . فلما وقع حادث المنشية فى شهر أكتوبر أى بعد ثلاثة أشهر من حادث المسجد والخطاب ، وشكلت محكمة الشعب لمحاكمة الإخوان الذين اتهموا بتدبير حادث المنشية ، وكذلك الذين اتهموا فى حوادث أخرى ، أو ثبت صدقاً

أو زوراً أنهم كانوا منضمين للجهاز السرى . . أوحى إليهم شيطانهم بسحب أوراق من المحكمة العادية وتقديمى وزملائى لمحكمة الشعب . . ولما كانت التحقيقات تجرى تحت السياط فى السجن الحربى فقد استدعونى وزملائى لأشهد أبشع ألوان العذاب .

دخلت السجن الحربى تحت جنح الظلام الحالك . . فاستقبلنا من عند الباب الداخلى بوابل من الكرابيج وركل وضرب وسباب أقسى من الضرب ومن الكرابيج ، لأنه كان ينال من الأم والأب . وكان الضرب منسقاً وعلى وتيرة واحدة ، فمثلا كان الكرباج يسقط فوق رءوسنا دون أن يمس أبصارنا ومع هذا فقد فقد بعضنا أعينهم لعدم الحكمة فى التصويب ! ! وهذا يدل على أن هؤلاء الجنود كانوا قد دربوا بدقة ولمدة طويلة على كيفية الضرب ، وكذلك الأمر بالنسبة للشتائم فكانت معظمها محفوظة لديهم ، وكانت عبارة « يا مختلس الوطن » شائعة بين صفوف الجنود .

جرى تفتيشنا بدقة وتحت وابل من الكرابيج والشتائم . ثم أوقفونا فى طابور طويل ، وطلب منا الجندى أن نذكر أسماءنا فلما ذكرناها ضربنا وطلب منا أن نتسمى بأسماء مسيحية فاخترت اسم المسيح عليه السلام واختار زميلى نفيس حمدى اسم صليب ، وهكذا جردنا حتى من أسمائنا . لاحظ جندى أحد إخواننا الملتحين ، وهو الحاج حمزة فأمره بأن ينتف شعر لحيته شعرة شعرة ، فى حين كانت الأوامر تقضى بحلق شعرنا بماكينة درجة واحد فكنا كالصلع ، شاهدت على

بعد خطوات منى المرحوم الأستاذ طاهر الخشاب المحامى وقد أمسك جندى بكرافتته وأمره أن يرقص رقصة القرد وكان الرجل وافر الجسم فكان يعانى بشدة من الحركات الراقصة .

دفعوا بنا إلى زنزانات ضيقة تتسع الواحدة إلى ثلاثة أو أربعة ولكنهم كانوا يزحمونها بضعف هذا العدد ، وفى هذه الزنزانات عشت أربعة أشهر من الرعب والخوف ، وعاش غيرى عامين منهما ستة أشهر لا يكاد العذاب فيها أن ينقطع ، ثم خف العذاب الجسدى تدريجياً ، وتبقى العذاب النفسى إلى أن تم الإفراج عنهم . . ولأجرى بسرعة على بعض ألوان العذاب التى ذقتها والتى شاهدتها عيناى ، ولأترك ما لم أشاهده بنفسى وإن كنت قد سمعت قصصاً من العذاب الرهيب الذى تعرض له بعض إخواننا . . أما زبانية السجن الحربى فكانوا — وللأسف الشديد — من ضباط وجنود الجيش — وأعتقد أنهم ما اختيروا لهذه المهمة إلا لأنهم كانوا أهلا لها . . كانوا قساة غلاظ القلوب بل لا قلوب لهم على الإطلاق ، وكنت وما زلت أشعر أنهم كانوا دخلا على وطننا ، وعلى جيشنا ، وعلى ديننا ، وعلى قوميتنا . . فهم ليسوا منا فى شىء . . ولو أفردت كتاباً عن حمزة البسيونى قائد فرقة التعذيب لخاننى القلم ولما اتسع لى الورق . . فهذا الحمزة كان عبارة عن كومة لحم أبيض وشعر أصفر كثيف يسقط فوق وجهه بلا تنسيق ، وله شارب أصفر يملأ نصف وجهه وعينان متداخلتان ، وله مشية غريبة لا تنتمى للعسكرية فى شىء ، وهو لا يكاد يفهم ما يقول . . هذا الحمزة كان يجول داخل السجن تحف به مجموعة

من الكلاب الجارحة تدين له بالولاء . كما كان يسير خلفه بعض من زبانيته وأشهرهم أمين ومحمود ودياب . . وعشرات من أمثالهم . . وكانوا مسلحين بكرابيج ومسدسات ، وألسنة أقسى من الكرابيج ومن المسدسات . . والعجيب فى الأمر أن خطة التعذيب كانت متناسقة كأنها مأخوذة عن كتاب واحد .

يبدأ العذاب بحفل الاستقبال الذى لا يعفى منه أحد . .

يحشر المعتقلون فى حجرات ضيقة قذرة .

يحرمون من دورات المياه ، وقد يمضى على الواحد منا يومان دون أن يسمح له بقضاء حاجته . . وكانت الغرفة مزودة بإناء صغير من الماء للشرب وآخر مثله لقضاء الحاجة وهما مصنوعان من المطاط . . ولم يكن وعاء قضاء الحاجة يتسع لأكثر من لترين ويمتلىء فى ساعات قلائل ، ونعيش فى عذاب ومعاناة إلى أن يؤذن لنا وتحت لسع الكرابيج بالذهاب إلى دورات المياه ، وكثيراً ما نذهب ونعود دون أن نتمكن من قضاء الحاجة . . إن هذا اللون من العذاب عانينا منه أشد معاناة ثم إنه تسبب لنا فى كثير من المتاعب الصحية التى يعانى معظمنا منها إلى الآن .

ومن أشد ألوان العذاب أننا كنا نسمع صراخ المعذبين وضراعتهم فكان كل منا يتوقع نفس المصير .. وكان مناداة واحد منا تعنى أنه سيساق إلى عنبر « ٤ » المخصص للتعذيب فنودعه فى صمت ودعاء وتشجيع بالعيون وليس بالألسنة مخافة أن يضطر لأن يبوح بعبارة تتسبب فى تعذيبنا ، فمثلا أذكر أن أحد المعتقلين قال : هل نحن فراخ

فنحشر هكذا . فاضطر زميله لينقل هذه العبارة إلى معذبيه فاستدعي المسكين ولقن درساً لم ينسه طوال اعتقاله .

كان مجرد مرور حمزة البسيونى على زنزانات المعتقل يسبب لنا رعباً قاتلا . . أما إذا طاف بالزنزانات فالويل كل الويل لمن لا تروقه وقفتهم أو لا تعجبه تحيتهم العسكرية .. ولقد لقيت من زيارته الأمرين فكان بمجرد أن يرانى ينالنى بكرباجه ، وبلسانه القاسى ، وكان دائماً يسخر من خطبى .. ويهددنى بسوء المصير .

أما العذاب الأكبر فكان يجرى فى السلخانة التى أعدت بكافة وسائل العذاب والتنكيل .. ولأنه نالنى قسط ليس بالكبير من هذا العذاب فإننى أكتفى بذكر بعضه ، متجنباً ذكر مالم تره عيناى .

استدعيت ذات يوم لعنبر ٤ فأدركت أننى مقبل على محنة عنيفة فاستجرت بالله وسألته العافية والرحمة .. ساقونى بكرابيجهم إلى الحجرة رقم ٤ وكانت معدة للون من العذاب ، ولأذكر ما جرى لى فهو يصفها لحد ما ، طلب منى تحت لسع الكرابيج أن أعتلى كرسياً عالياً ، ثم حملنى بعض الزبانية وعلقونى بين كتفى ورجلى بحبال مدلاة من سقف الحجرة . . وحشد ثلاثة من زبانيتهم ومسحوا جسدى بكرابيج تناولتنى من قدمى إلى رأسى ، ولما أعلمتهم أن بجسمى جروحاً نتيجة لاستئصال الكلية تجنبوا موضع الجرح ، ولقد كنت لحد كبير صبوراً على العذاب الذى استمر لساعات .. ثم أنزلونى وطلبوا منى أن أعمل « محلك سر » لمدة طويلة .. ثم أرسلوا بى إلى زنزانة وجدت بها

الدكتور خميس حميدة وكيل الإخوان المسلمين . فخنف عنى الرجل بنظراته الحانية .. وفجأة فتح الباب ودخل منه رجل جسيم وتقدم منى وقال لى بصوت غليظ .. : إنت كنت عايز تعمل وزير ياسى حسن؟؟ ولا أدرى كيف أجبته بقولى : لو عذبتمونى ثانية ما قبلت أن أكون وزيراً .. ثم أجهشت بالبكاء .. فجلس الرجل إلى جانبى وعرفنى بنفسه إنه على شفيق ياور المشير عامر .. وبدأ يتحدث بتعال واعتزاز وقال فيما قال : لقد طلبت منهم أن أحضر عبد الحكيم عابدين فى صندوق ولكنهم رفضوا .. ثم ختم حديثه بنفس اللهجة التى بدأها . والعجيب أن على شفيق قتل بيد عصابة فى لندن بعد أن سرقوا منه مليون جنيه ثم شحن فى صندوق إلى مصر .. ثم اختلفت الأسرة وتقاضت فيما بينها بشأن تكاليف شحن الجثة فى صندوق .

عدت إلى عنبرى ثانية ، ثم استدعيت بعد أيام وعلقت فى نفس الغرفة ، وخصص لى أربعة أشداء فأذاقونى أشد العذاب ، والغريب أنهم كانوا يطلبون منى أن أصرخ وأستغيث بشدة ، لا أدرى ما السبب ، وإن كنت قد علمت فيما بعد أنه كانت تسجل أشرطة بصراخنا لتذاع ثانية من قبيل المتعه والتشفى عند كبار المسئولين .

بعد أيام استدعيت مع ثلاثة من أصدقائى وزملائى وطلب منا نحن الثلاثة أن نرفع أرجلنا لأن القائد العام قد صرف لكل منا مائة كرباج فاستسلمنا ، وقال لنا الجندى المنفذ وكان الجاويش أمين وهو أقساهم وأغلظهم قلباً ، سأضرب كل واحد ثلاثين جلدة ،

فمن يتحملها ولا يصرخ سأكتفي بهذا القدر أما من يصرخ فسوف أضاعفها إلى المائة ، ولقد تمكنت من تحمل الثلاثين .. ولكن بعض زملائي بدت منهم آهات فأكملوا العدد إلى المائة .

كان من عادتهم المناداة على العيادة الطبية فكان المضطرون يخرجون للقاء الطبيب متحملين الإيذاء والعذاب .. وفكرت في الاستعانة بالجروح الظاهرة في جسدي لأستعين بالطب لعله يخفف عني بعض ما ألقى من عذاب ولكني آثرت السكوت خوفاً من الضرب وذات يوم ناداني أمين فتوقعت جولة أخرى من العذاب ولكنه طلب مني أن أقابل ضابطاً يدعى عمر ، فقال لي الضابط بمجرد أن رآني : هل أنت مت ؟؟ فعجبت من سؤاله .. ولكني علمت فيما بعد أن إذاعات خارجية أذاعت خبر وفاتي من التعذيب كما أذاعت السودان خبراً مفاده أنني فقدت بصري .. فخطر لي أن أستفيد من تساؤله ، وقلت له : الحمد لله أنا بخير ، فعاد يسأل : ولم يقولون أنك مت ، قلت له : لأنني أعيش بكلية واحدة ولعل هذا هو السبب فيما قالوا ؟ ثم صرخ في أمين : هل عذبت ؟؟ فطبعاً أنكرت .

أمر الضابط عمر بعرضي على الطبيب ، فاستدعيت في اليوم التالي ومثلت أمام الطبيب ، وعلمت عرضاً أنه شقيق على شفيق ، فقلت له همساً : إزاي علي ! ! فقال : وهل تعرفه فأشرت برأسي ما يفيد أنه صديقي فأكرمني الرجل بأن أحالني إلى الشفخانة .

وحتى أخفف عن القارئ وطأة الحوادث .. أذكر له قصة مبكية مضحكة كما يقولون ..

يوم أن عرضت على الطبيب . أوقفونى مع زملائى فى طابور وكان بعضنا لا يستطيع الوقوف من شدة الإيذاء ، وكان منا رجل كسرت رجله فى حرب فلسطين ومع هذا كان يجبر على الوقوف برجل واحدة . بل أمرونا بأن نقوم ونقعد بحركة لولبية واحدة .. فتوسل بعضنا إلى الطبيب ليؤذن لنا فى الجلوس فاستأذن الطبيب الجاويش أمين فسمح لنا ، إلا أن الجندى دياب لم تعجبه هذه الليونة من رؤسائه ففكر فى حيلة ذكية ، وطلب منا أن نستمر فى الوقوف والجلوس ، لأن اللعبة قد أعجبته ، وحتى لا يتهم بعصيان الجاويش أولانا ظهره وأخذ يحرك كرباجه إلى أعلى وأسفل ، وأمرنا بالتحرك مع الكرباج . فدهش الجاويش والدكتور من منظرنا وظن أن بنا لوثة فأمرونا بالجلوس ، ولم يحرم دياب من كرباج جاويشه فقد ضربه لعصيان أوامره .

بعد أن كشف على الطبيب وتبين له أنى أعيش بكلية واحدة أحالنى إلى الشفخانة . وهناك وجدت مجموعة من إخوانى الذين كانوا يعالجون من آثار التعذيب ليعدوا للمحاكمة ، وكان منهم صلاح شادى الرجل التقى الورع الذى تحمل ما لم يتحمله آلاف الرجال من العذاب والإيذاء ، وفى الشفخانة جرت أحداث سريعة ومروعة ؛ فقد جئ بالإخوة الستة الذين حكم عليهم بالإعدام ، وأودعوا فى زنزانات منفردة ، وتحت حراسة مشددة ، وظلت حجراتهم مضاءة طول الليل وعشت ليلة تمثل لى فيها القبر الرهيب وهو يضمنا جميعاً ، واستعرضت الرجال الستة الذين كنت أعرفهم حق المعرفة ، استعرضتهم أمامى .

وتخيلت ما سيلقونه فروعت أيما روع ، وحاولت جهدى أن أنظر إليهم أو ألتقى بهم ولكن الحصار كان شديداً عليهم .. إلا أنى قابلت المرحوم هنداوى دوير الذى حاول أن يهمس إلى بكلمة ما .. ولكن الجنود حالوا بينه وبينى .

وفى فجر اليوم التالى حضر حمزة البسيونى ، وبصوته المنفر ، وأسلوبه الجاف ناداهم الواحد تلو الآخر .. وتمت جريمة إعدامهم رحمهم الله رحمة واسعة ورحم من لحق بهم بعد ذلك ممن قتلوا بالتعذيب أو برصاص الحكومة كما حدث فى مذبحة طره أو بمشانقها اللعينة رحم الله الجميع ورحم أسرهم وإخوانهم وأحبابهم آمين .

لبثت عشرة أيام فى المستشفى ، كانت استشفاء للجسد ولكنها كانت عذاباً للنفس ، وترويعاً لها .. ثم حضر إلى حمزة البسيونى وساقنى بكرباجه إلى السجن .. وبعد أيام استدعيت مع المجموعة التى كانت معى فى سجن مصر ، وطلب منا لنستعد للمحاكمة ، ولأن قضيتنا لم يكن فيها سابق تحقيق فى السجن الحربى — لم نؤثر كما كان يفعل مع غيرنا — بأن نقول ما كان يمليه علينا الجلادون .

سيق بنا إلى معسكر قريب من السجن ، ومثلنا أمام ثلاثة ضباط من ضباط الجيش ، وبدأت مهزلة ما سميت بالمحاكمة ، وكان قد تطوع بالدفاع عنى قريب المرحوم الأستاذ أحمد فراج طايع الذى كان يعمل وزيراً للخارجية فى بداية الثورة ، وسئلت هل ألقيت خطابك فى المسجد ولم ؟ فأجبت بكل صراحة ، لأنهم قالوا لى إنهم

يحتفظون بتسجيل لخطابى ، ولم أكن لأخشى من أى شىء ورد فى الخطاب . وسألنى رئيس المحكمة : هل قلت ،فى خطابك : اللهم وفق الحاكم للحكم بما أنزل الله ؟؟ فاغتظت من السؤال وأجبته بتهكم : لو أنك زرت المسجد يوم الجمعة لسمعت الخطيب وهو يدعو بهذا الدعاء .. وانتهت المحاكمة بعد أن ترافع عنى الأستاذ فراج .. وانتهت محاكمة زملائى ثم أعادونا للسجن وقوبلنا بأسلوب أخف من الأسلوب المعتاد . وبعد أيام استدعينا لسماع الحكم فصدر الحكم على بخمسة عشر سنة أشغال شاقة . وعلى ابن عمى بعشرة أعوام أشغال شاقة وحكم على الآخرين إما بالسجن مع إيقاف التنفيذ أو البراءة .

وبهذا الحكم انتهت مأساة السجن الحربى .. وكنت فرحاً أيما فرح بأننى سأخرج من السجن الحربى إلى ليمان طرة . وهو مهما سمعنا من قساوته إلا أنه لن يكون فى مستوى السجن الحربى .

وبدأت مرحلة جديدة من المعاناة ، والآلام لكنها كانت من لون آخر ، وبأسلوب آخر .

• • •

ليمان طرة

يقترن اسم سجن طره فى أذهان المصريين بالرعب والخوف والحرمان حتى أننا كنا نتساب به فنقول « روح جاك طره » ، ونزلاء هذا السجن معظمهم من عتاة القتلة ، أو جرائم السرقة التى يصاحبها العنف ، ولذلك فقد كان من عادة إدارة السجون تخصيص سجانة من الأقوياء ليقابلوا القوة بمثلها ، وكان السجين يعيش قيد الحديد طوال فترة سجنه أى لمدة عشرين سنة ، ويطلق عليه اسم المذنب ، وله رقم معلوم ، وكان العمل الرئيسى للسجناء قطع الأحجار من الجبل ، هذا السجن كان بالنسبة لنا أملا لننجو من عذاب السجن الحربى ، ولننجو كذلك من الحكم بالإعدام . . وتحقق الأمل بالنسبة لى وهو الخروج من سجن تنعدم فيه كل القيم الإنسانية ، إلى سجن آخر فيه ولو جانب يسير من الإنسانية ، ثم إن سجن طرة كان محكوماً بلوائح ونظم أياً كانت هى ، أما السجن الحربى فالحكم فيه للكرباج وحمزة البسيونى ولقد لمست هذا الفارق بمجرد أن دخلت سجن طرة ، فقد شعرت بدفء النظام بغض النظر عن قسوته ، ولقد كان السجن ـ لحد ما ـ يشعر بفداحة مأساتنا ، فعاملنا معاملة أفضل من معاملة السجناء العاديين إلا أنه كان يطبق علينا نظمه القاسية بطبيعتها .. ولقد خفف من وطأة السجن علينا وجود مجموعة من إخواننا الذين سبق أن حكم عليهم

وكان منهم الأستاذ منير الدله رحمه الله وأحسن إليه ، كما خفف عنا صدور قرار بإلغاء القيود الحديدية بالنسبة لكافة المساجين .

عشنا فى هذا السجن ثلاثة أعوام تقريباً انتهت بمأساة رهيبة أفردت لها قسما كبيراً فى هذا الكتاب . . أما عن حياتنا فى هذا السجن فكان الجانب الطيب منها هو لقاؤنا مع أسرنا بعد غيبة شهور ، وبعد عذاب ما كنا نتوقع أننا سنفلت منه إلا بالموت ، ثم إنه تيسر لنا الكتاب فسعدنا به أيما سعادة ، وتيسر لنا الأمان فكنا ننام الليل ولا نسمع الصراخ ولسع الكرابيج . أما عن حياة السجن فكانت حياة قاسية ، فكنا نخرج إلى الجبل صباح كل يوم لنشارك فى تكسير أحجاره ، وكان طابور الجبل يمثل السخرة والإذلال ، لكن التعود عليه خفف عن إخواننا الكثير ، ونظراً لحالتى الصحية فقد أعفيت مع مجموعة من زملائى من الذهاب للجبل ، كما منعت من الذهاب إلى سجن الواحات الذى خصص لكبار الإخوان ، ولقد انتفعت كثيراً من هذه المزايا فاشتغلت بالقراءة ، والكتابة ، والتسلى بلعبة الشطرنج .

ولقد حاولنا أن نصنع حياة خاصة بنا داخل السجن فشكلنا قيادات من بيننا ، بعضها يتولى تنظيم العمل فى الجبل والعنبر وكان يتولاها شاب ذكى هو عبد الحميد الخطابى ، وقيادة فكرية كان يشرف عليها العالم الجليل الشيخ حسن أيوب ، أما القيادة العامة فكانت موكوله لرجل فاضل من قدامى الإخوان هو الأستاذ أحمد البس وكنت أتولى التوجيه وأدلى بالمشورة ؛ وكان يشاركنى هذا الأمر الدكتور محمود الشادى والأستاذ عبد الحليم حسين والأستاذ محيى الدين عطية وآخرون من الكرام :

بمجرد أن استقر بنا المقام فى السجن ، وتضاءل لى الأمل العاجل فى الإفراج عنا ، والذى كانت تغذيه الإشاعات التى كانت ترسل إلينا تباعاً تبشرنا بالإفراج عنا ، بدأنا نتدارس قضيتنا ، ونتدارس أوضاعنا ، وقد بدأنا هذه الدراسة همساً لأننا كنا نخشى أن نتهم بالتمرد على القيادة العليا ، والتى كان يقال لنا وقتها أنها فى الواحات نظراً لوجود معظم أعضاء مكتب الإرشاد ، وأن هذه القيادة تستمد شرعيتها من المرشد الذى كان قد أفرج عنه .. وكانت القيادة المحلية لها جانب من الاحترام لأنها كانت على علاقة بقيادة الواحات .. هذا الهمس بدأ من بعض الشباب المثقف .. وكان السؤال الحائر : لم دخلنا السجن ؟ ؟ وهل كنا على حق فى كل تصرفاتنا ؟ ثم ماذا سنفعل فى غدنا ؟ وكان السؤال الفكرى المحير : هل نحن جماعة المسلمين أم نحن جماعة من المسلمين ؟ . كل هذه الأسئلة كانت تناقش بين الشباب المثقف والشباب المتفتح .. وكان فى طليعة هؤلاء الدكتور محمود الشادى ، والدكتور سليمان حجر ، والمهندس وجيه حسنين ، والأساتذة محيي الدين عطيه .. وكنت أشترك فى هذه المناقشات لكننى لم أوافق على إنفاذها إلى جمهور الإخوان وخاصة أنهم بداخل السجن .. وكان جمهور الإخوان من المتعلمين وغير المتعلمين يميل إلى إقناع النفس بمسلمات ليستريح نفسياً ومعيشياً فى السجن من هذه المسلمات . إن الأوامر والتوجيهات تكون من القيادة فقط ، وأن هذه القيادة قادرة على حل مشاكلنا ، وأهمها أنها ستتمكن من الإفراج عنا ، وأن النصر آت لا ريب فيه ، وكان النصر يتمثل فى العودة إلى دار الإخوان المسلمين ثانية ، وهزيمة حكومة عبد الناصر .. هذان اللونان

من التفكير ، انتشرا فى كل السجون ، وكان أشدها وطأة فى سجن الواحات .. ولقد انتهى هذا التفكير إلى ظهور فريق المعارضة وفريق التأييد ، وما صاحب ذلك من متاعب لا حد لها .

ولو أن قيادة الإخوان استجابت لهذا الحوار الفكرى لحصلت منه فائدة كبيرة ، ولكن بعض هذه القيادات أقفل أبواب المناقشة خشية الفتنة ، فكان من نتيجة هذا الحظر ، أن طغت الخلافات وانتشرت واستغلتها الحكومة أيما استغلال . ولو أن الشباب الذى تبنى المناقشات الحرة المفتوحة تصرف بحكمة مع القيادات ، ولم يعمل على إدانتها بشدة على تصرفاتها ، وهى تعانى مرارة السجن والحرمان لكانت المناقشات قد آتت ثماراً أفضل ، وخرجنا بحصيلة عظيمة .

ومع هذا كله فإننى أعتقد أن هذه المناقشات حمات الكثير من جمهور الإخوان على الاعتقاد بأنهم جماعة من المسلمين وليسوا جماعة المسلمين

ولكن ومما يؤسف له أن هذه المناقشات انتهت إلى خلافات حادة داخل السجن، فرقت بين بعض الإخوة ، وخاصة فى الواحات حيث الجو المفتوح .. وإن كنت قد لمست أن هذه الخلافات كان السجن من الأسباب الرئيسية فى خلقها فلما أفرج عنا بدأت تذوب ، ولعل من أسباب تبدد هذه الخلافات فرية سنة ١٩٦٥ التى خلفها عبد الناصر ليقضى بها على كل فكر أو تجمع إسلامى ، هذه الفرية أكدت للجميع أن جمال عبد الناصر كان يهدف إلى ضرب كل تجمع سواء كان إسلامياً أو غير إسلامى، وقد خص التجمع الإسلامى بكل غضبه وسخطه .

وقبل أن أنتقل إلى موضوع آخر أود أن أنقل القارئ إلى داخل عنبر (أ) فى السجن وأصف له مجتمع السجن ، وما كان يدور فيه من صراع ومناقشات فكرية أو عقائدية كان هذا العنبر يضم ١٨٠ عضواً من أعضاء الإخوان ، كان معظمهم من الشباب ، وكانت معظم تهمهم القيام بتمويل أسر الإخوان بعد اعتقال أرباب هذه الأسر . وكانت عقوبة تمويل الأسر تبدأ من خمسة أعوام سجن إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وللعلم فإن من حكم عليهم بجريمة تمويل الأسر كانوا أكثر من ثلاثة أرباع المسجونين البالغ عددهم ثمانمائة مسجون .. وكان هذا الشباب على أول طريق الدعوة .. هذا المجتمع الإخوانى كان يحتل الطابق الثالث والرابع من المبنى ، و ..

وكان يشاركنا فى سكننا سبعة من الشباب اليهودى الذين كان قد حكم عليهم فى قضية لافوم الشهيرة .

وكان يشاركنا أيضاً خمسة من الشباب الشيوعى .

وكان يشاركنا ثلاثة من الشباب المسيحى الذين كانوا ينتمون لجماعة الأمة القبطية وكانوا قد أدينوا باختطاف البابا .

وكان يشاركنا فى المبنى مساجين عاديون .

هذا الخليط من الناس اضطرتنا الظروف للتعامل معه على الرغم من التباين الفكرى والعقائدى ، ولقد كان تفاهمنا مع كل هذه الطوائف يلتقى عند نقطة الوسط كما يقولون ، باستثناء الشيوعيين والصهيونيين فالشيوعيون لا يستطيعون إخفاء كفرهم ،حتى وإن أنكروه بألسنتهم ،

إلا أن الحوار الفكرى معهم يصطدم بحقائق تنتهى بهم إلى هذه النتيجة ، مثلا يقدسون كل الماركسية والماركسية صريحة فى اتهامها للدين بأنه مخدر للشعوب وأن تحقيق الماركسية لا يكون إلا بتحريم هذا المخدر ثم إنهم يؤمنون بالمنهج الماركسى فى التطبيق وهذا المنهج يستبعد الدين تماماً من أمامه ، يضاف إلى هذا أن إيمانهم بالوطن الأم روسيا أولى من إيمانهم ببلدهم مصر ، ويترتب على هذا الإيمان أنهم كانوا ولا يزالون يؤيدون روسيا فى كل مواقفها الخارجية ، وإن تعارضت مع الوطن أو الدين أو الإنسانية ، ومن لقاءاتى الأخيرة بهم وجدتهم ينتصرون للحبشة ضد أريتريا ، ولروسيا ضد أفغانستان ، وكان ترحيبهم بالخبراء الروس فى مصر أيما ترحيب .. من أجل هذا وغيره كان اللقاء بيننا وبينهم مستعصياً ، أما اليهود فعلى الرغم من وداعتهم وحرصهم على مودتنا إلا أن طبيعتهم المعروفة وهى الغدر والخيانة كانت تجعلنا نخشاهم ونخشى التعامل معهم ، ثم إنهم كانوا يعرفون عنا الكثير ، وكانت سمعتنا فى فلسطين ترهبهم ، ولذلك أوصينا إخواننا بعدم الخوض معهم فى مناقشات ، كما أوصيناهم بعدم التعرض لهم بالسوء فهم فى موقف الضعيف وليس من شيمة المسلم انتهاز الفرص .

أما الشباب المسيحى فقد توثقت العلاقة بهم وكنا نوادهم ويوادوننا وكان الهم يجمعنا ، وهو السجن وكان كره الظلم والظالمين يسد كل الثغرات والحساسيات التى نلمسها فى المجتمعات المفتوحة .. ولأن ما عندهم من عقيدة نعرفها كما أنهم يعرفوفون الكثير من عقيدتنا فقد احتكمنا إلى قوله تعالى : « لكم دينكم ولى دين » .

أما المساجين العاديون فكانوا يتعاطفون معنا كثيراً ، وذلك لموادتنا لهم ، ولإشفاقنا على مستضعفيهم والتفاهم المادى مع زعمائهم وخاصة ملوك الجبل ، لكنناكنا نخشى من نخالطهم فى حياتهم العادية ، لأن ماضيهم كان له تأثير كبير فى حياتهم داخل السجن . . بل إن السجن أضاف إليهم أمراضاً خلقية يسرت لها ظروفهم المعيشة ، وتعامل السجن غير الإنسانى معهم ،وطول الأحكام التى تدعو إلى اليأس من بناء حياة كريمة ، ولكم أتمنى أن نعيد التفكير فى الأحكام الطويلة — فنلغيها من قوانيننا ، بحيث لا يتجاوز الحكم أكثر من خمسة أعوام . . يعد فيها السجين إعداداً عسكرياً مدرسياً . . فيرغم على النظام ، ويرغم على التعليم ، ويرغم على العمل مع تقديم راتب له يتفق مع جهده وتحصيله ، وقبل هذا كله يلقن الدين ويحمل على العمل به . . وبالتالى يمكننا أن نخرج السجين ومعه سلاح ثقافى ، وسلاح عملى ، وسلاح الإيمان وهو أقوى الأسلحة . . وكل سجين ينجح فى الدراسة والتدريب يمكن أن تخفف عنه الأحكام .. لكن قد يقال: وهل تكفى هذه العقوبة لردع القاتل أقول إن ردع القاتل هو القصاص منه . . وبالتالى فإن العقوبة التى أذكرها سوف توضع للمجرمين من غير القتلة لأن عقوبة القاتل القتل .

بقى أن نستكمل حديثنا عن السجن الذى وقعت فيه أكبر جريمة فى تاريخ مصر . . وهى جريمة تفوق بكثير مذبحة القلعة التى تعرض لها المماليك على يد محمد على . . فقد كان السجن يدار بمجموعة من الضباط والسجانة . . وليس من العدل أن نعمم الحكم عليهم فنقول

إنهم كانوا قساة قسوة السجن لأننا وجدنا من بعضهم معاملة طيبة وكريمة وإنسانية ـ ولكن وجدنا من آخرين غلظة تكاد تعدل غلظة ضباط وجنود السجن الحربى . . وهذه المجموعة الثانية هى التى تسببت فى حادث طرة المرعب .

* * *

مذبحة طـرة

حادث طره دون مقدمات ، جريمة تفوق كل وصف ، ومصيبة حلت بأمتنا لا يمكن تخيلها ، وحدث مفجع موجع محزن مؤلم . . قل ما شئت فيه من صفات فإنك سوف تقف مشلولا أمام تصوره وتقييمه .

الصورة كالآتى . . مائة وثمانون شاباً حوكموا أمام مهزلة سميت محكمة الشعب كانت التهم الموجهة إلى ٩٠٪ منهم هى تمويل أسر الإخوان بعد أن فقدت عائلها ولا تملك حتى القوت الضرورى . . هذه هى تهم ضحايا مذبحة سجن طره . . وهؤلاء الضحايا كان يتراوح عمرهم بين الثامنة عشرة والثلاثين . . وجلهم من الطلبة الجامعيين .

المكان . . سجن طره الرهيب . . والضحايا بداخله فى زنزانات فى الدور الثالث ، زنزانات محكمة القفل ، تقع بداخل عنبر يحكمه باب حديدى كبير لاينفذ منه شىء قط ، ويحيط بهذا العنبر سور ضخم يرتفع عشرة أمتار على الأقل ، ولهذا السور باب ضخم موصد من الخارج ، ويقف على السور جنود من الجيش معهم أسلحة أتوماتيكية حديثة .. فإذا قدر أن هربت من العنبر ، وهذا مستحيل فلسوف يعترضك الباب الكبير القائم فى السور ، فإذا قدر ونفذت منه بمعجزة

ولن تكون ، فسيعترضك باب ضخم لايسمح لإنسان منه بالدخول إلا بإذن من الضابط ، ويبقى بعد ذلك الباب الرابع وهو باب السجن الضخم وهو باب مركب من حديد وخشب ويقف عليه حراس من أمامه وخلفه . . هذا السجن يستحيل على أى إنسان أن ينفذ منه .

هذا هو المكان الذى وقعت فيه الجريمة .

الزمان الساعة الثامنة صباحاً ــ ١ يونيو سنة ١٩٥٧

أى مبرر يمكن أن يجده الإنسان لهؤلاء الذين اقترفوا حادث طره ، هروبنا من السجن ؟ هذا مستحيل مائة فى المائة . . ! ! التمرد ... ! ! إن قمعه فى السجن معروف وهو الجلد والسجن الانفرادى . . امتناع المساجين عن الخروج إلى الجبل لأداء العمل الموكول إليهم ، هذا عقوبته الحبس الانفرادى والجلد ! ! والقصة كما أذكر طرفاً منها . . لأن من شهدها وفى مقدوره أن يحتفظ بقدر كبير من الذاكرة فهو إنسان غير عادى ، القصة كالآتى : كانت قد وقعت مشاحنات بسيطة بين بعض شبابنا وبين ضابط فظ اسمه عبد اللطيف رشدى ــ « هذا الضابط قتل فى حادث لا أذكر سببه » ــ وقد جوزى الذين اختلفوا مع هذا الضابط ، ولكنه حمل فى صدره لهؤلاء الشباب حقداً غذاه كبرياؤه الكاذب ، وضابط آخر كانت له مناوشات مع شباب الإخوان وذلك لأنه كان يفاضل بين معاملة الجواسيس اليهود وبين الإخوان ، فلما احتج الإخوان غضب وعاقبهم وسجنهم ، وضابط ثالث كان همه أنه يدفع عن نفسه تهمة أنه كان فى يوم من الأيام من الإخوان وليس

أمامه من وسيلة إلا تعذيب الإخوان والإيقاع بهم وإثارة الفتنة فيما بينهم . . وضابط رابع كان مريضاً فى نفسه مجروحاً فى كرامته يشعر بحقارة نفسه،وقد وجد الفرصة ليفرغ هذا الحقد فى آخرين لتكون له شخصيته ومكانته . . هؤلاء وغيرهم ممن لا أذكرهم الآن شاركوا فى أفظع جريمة فى حق الإنسانية والوطن . . والذى علمته فيما بعد أن هؤلاء جميعاً جوزوا من الله فى دنياهم أسوأ الجزاء . ويا ويل القتلة بين يدى الله .

ننتقل إلى صورة أخرى ، كان بالسجن جواسيس يهود وكان بعض الضباط يفضلونهم علينا فى المعاملة لأسباب سرية فلما طلبنا مساواتنا بهم وأسمعنا مطلبنا هذا لخارج السجن خشى المسئولون عن السجن على مستقبلهم فاشتد حقدهم علينا . . . . وكان فى السجن زوج ممثلة مشهورة وهو وزوجته كانا متهمين بالاتجار فى المخدرات ، وبعد أن تم الإفراج عن الممثلة تولت رعاية زوجها فكان مدللا بالسجن، وكنا نطالب أن نعامل مثل هذا السجين . . وكانت إدارة السجن تغضب من مطالبنا هذه . . . وكل هذا الغضب والحقد كان يدخر فى صدور هؤلاء الضباط .

ومن الحوادث المؤلمة التى سبقت المجزرة أننا فى أثناء الزيارة التى كانت تتم من خلال الأسلاك الشائكة حاول بعضنا تناول مأكولات بسيطة كقطعة لحم مثلا ، من خلال ثغرات ضيقة فى السلك لاينفذ منها الأصبع ، فاعترض الجندى المكلف بالحراسة على تصرفنا ووقعت

مشادة بين الجندى وبين زملائنا . . فثارت ثورة أحد الضباط وانتهى التحقيق فى هذه الجريمة ! ! ! بجلد بعض الإخوة وسجنهم . . فى نفس الوقت كان الجنود يحملون الطعام المرسل من الخارج للجواسيس اليهود أو لزوج الممثلة . . ! ! هذه المشاهد كانت تثير انفعالنا ، وتؤجج الحقد فى صدور بعض الضباط من ضعاف النفوس .

وكان عبد اللطيف رشدى وهو من أشد الضباط كراهية لنا ، مكلفاً بحراستنا فى الجبل . . فوقر فى صدور إخواننا أنه قد تدبر لهم مجزرة فى الجبل . يصطنع لها هذا الضابط أسبابها بأن يتهمهم بأنهم حاولوا الهرب وبالتالى يكون من حقه إطلاق النار عليهم .

ثم تكاثرت الحوادث الفردية لدرجة لم يعد هناك شك فى أن الأمر لم يعد محتملا ، وكان لابد من اتخاذ قرار . . قرار يدافع به الشباب عن أنفسهم . . وبعد تفكر وترو اهتدوا إلى موقف سلبى وفى نفس الوقت قانونى ، . . وهو الامتناع عن العمل احتجاجاً على تصرف إدارة السجن معنا . . هذا الموقف ليس للسجن أن يقابله بالقوة إلا بعد أن يتحقق من السبب . . ولما كان هذا القرار سوف يكون جماعياً ، ومعنى هذا أنه قد يفسر تفسيراً خاطئاً ، فقد قررنا أن يكون التصرف فردياً لا إجماعياً . . ولقد رأيت أنا ومجموعة من زملائى من الذين يعتبرون فى حكم المسئولين عن الإخوان ، التشاور مع جميع الذين سيشتركون فى الامتناع عن العمل قبل بدء الاضراب ، فجلسنا معهم جلسات موسعة نحذرهم من نتيجة تصرفهم هذا ونبين

لهم أن الليمان قد يتخذ موقفاً متشدداً ، لدرجة قد تصل إلى الجلد والإيذاء الشديد – لأننا لم نكن نتخيل أن هذا الموقف قد يصل إلى معشار ما وصل إليه . . لم نكن نتصور هذا لأنه لم يحدث فى تاريخ السجون المصرية ، وعلى حد علمنا فى تاريخ السجون جميعاً ، أن يقدم سجن على ما أقدم عليه الليمان ، ولكننا أغفلنا شيئاً واحداً وهو أن نظام الحكم القائم كان فى إمكانه أن يفعل أكثر من هذا بكثير . . وما وقع فى السجن الحربى سنة ١٩٥٤ فى اعتقادى أقسى وأغلظ من مجزرة طره وما بعدها وما قبلها فى تاريخ مصر ، وما حدث فى السجن الحربى وفى أبى زعبل سنة ١٩٦٥ هو شىء فوق تصور البشر . . المهم أننا حذرنا إخواننا من نتيجة موقفهم ولكنهم أصروا .. فأفهمناهم أنه ليس من المصلحة أن نكتب للسجن عريضة ممضاة منا كجماعة . . ولكل واحد منا أن يكتب بخط يده ما يعن له . . ثم حددنا لهم مضمون الشكوى حتى لايذهب بهم الشطط . . وانتهى الجميع إلى كتابة شكاوى منفردة إلى النيابة العامة – عن طريق السجن – أعلنا فيها امتناعنا عن الخروج إلى الجبل ، خشية أن تتعرض حياتنا للخطر ، وقلنا فى شكوانا أننا سوف نبقى فى غرفنا فى انتظار التحقيق معنا ، وفى الوقت أبدينا استعدادنا لتقبل الإجراءات القانونية التى قد يتخذها السجن . . هذا ما حدث بالضبط . . أما التفصيلات فلا تتسع لها الكتب العديدة .

نسيت وما أكثر ما نسيت . . نسيت أننى والشيخ حسن أيوب طلبنا مقابلة مدير الليمان قبل المجزرة بثلاثة أيام ، ورجوناه أن يحضر إلى

العنبر الذى نقيم فيه ليلتقى بزملائنا ويستمع إلى شكواهم ومتاعبهم وخاصة ما يلاقونه فى الجبل . . وكان إلحاحى فى طلبه شديداً وملفتاً ، وبينت له أننى وأمثالى من المسئولين عن الإخوان لا قبل لنا باقناعهم بالصبر على ما يلقونه من إيذاء . . فوعدنا بزيارة المساجين ولكنه لم يفعل .

وفى اليوم المشئوم خرجنا من زنزاناتنا كالمعتاد ، وذهبنا فرادى إلى ضابط السجن وسلمناه الأوراق التى كتبناها . . ثم عدنا إلى غرفنا ننتظر تصرف الإدارة . . وجاء التصرف بعد قليل بأن أمرنا بدخول الزنزانات ثم غلقت علينا الأبواب . . ومعنى إغلاق الأبواب علينا شيئان ، أولهما استسلامنا لنظم السجن ولوائحه ، ثانياً أن بإمكان إدارة السجن تنفيذ القانون علينا ، وذلك لأن كل زنزانة لم يكن يتجاوز عدد السجناء فيها الأربعة . ما عدا زنزانة كبيرة كانت تضم سبعة أو ثمانية أشخاص . وهذا كله يعنى أن إدارة السجن لو كانت حريصة على تطبيق القوانين لما استعصى عليها ذلك ، وماعليها إلا أن تأمر كل مجموعة أن تمثل أمامها منفردة . . ثم تتصرف معها كما تشاء . . ولكن الأمر جاء على خلاف ذلك . . ويبدو أن إدارة السجن كانت قد تلقت أوامر من وزارة الداخلية . . لكن ممن ؟ الله أعلم . . إلا أن المقطوع به أن التصرف الذى تم معنا وما تلاه من عدم المبالاة بما جرى ، وما تلاه من عدم إجراء تحقيق أو اتخاذ إجراء ضد الجناة ، يقطع بأن الإجراء إنما اتخذ بناء على توجيهات من جهات عليا . . جهات عذبتنا وأعدمت العديد منا ، وزجت بنا فى السجون وطاردت وشردت أسرنا .

استدعانى مدير السجن من زنزانتى ، وقال لى بخشونة : عملوها . .
قلت له : لقد سبق أن قلت لك أن الشباب يرغبون فى الاجتماع بك وإسماعك شكواهم ، فسكت قليلا ثم أمر بإرسالى إلى غرفة التأديب ، فأوجست فى نفسى خيفة وتوقعت جلداً وإيذاء واتهاماً بتزعم الإضراب . . ثم ألحق بى عبد الحميد الخطابى وهو شاب من الإسكندرية كان معروفاً لديهم كأحد زعماء الإخوان . . وثلاثة آخرون لا أذكرهم . . . ثم أحيط العنبر من جميع جوانبه بقوات لا تقل عن ثلاثمائة جندى مدججين بأسلحة نارية ، . . وأعلنت حالة الطوارىء فى السجن ، ثم دخل مدير السجن إلى ساحة العنبر الخارجى ، وأمر السجانة باستدعاء مجموعة من إخواننا أظنهم فى حدود العشرة كدفعة أولى . . ثم أمر بربطهم بالحبال كالبهائم وأن يساقوا للجبل على هذه الصورة تحت حراسة مجموعة ضخمة من الجنود المعززين بالعصى الغليظة . . فلما رأوا هذا المشهد الرهيب هرعوا عائدين إلى العنبر وانتزعوا المفتاح من يد الجندى وفتحوا أبواب الزنزانات كلها فخرج منها إخواننا ليواجهوا مصيرهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً لأن باب العنبر كان موصداً عليهم ، وبالتالى لن يستطيعوا الخروج من الباب المفضى للفناء الخارجى ، والأبواب التى ذكرتها ، علاوة على وجود قوة كبيرة من رجال الجيش كانت تتربص بهم من فوق الأسوار .

حاول مدير السجن اللواء سيد والى ويساعده إسماعيل طلعت أن يخدعوا إخواننا ليتمكنوا من اقتحام زنزاناتهم ، ولكن غدره السابق

زملائهم جعلهم يطلبون منه ضمانات حتى لا يكرر ما أقدم عليه . . طلبوا منه أن يقسم بشرفه العسكرى على ألا يؤذيهم ويلتزم بتطبيق القانون عليهم .. ولكنه رفض .. وفى الوقت الذى كان يفاوضهم فيه صعدت قوة من المسلحين إلى الدور العلوى الذى يعلو المكان الذى كان يتجمع فيه إخواننا وبدأت بإطلاق النار . . وعلى الفور التجأ جميع إخواننا إلى زنزاناتهم وأقفلوها على أنفسهم . . اتقاء النار . . وكان المفروض أن ينتهى الأمر عند هذا الحد لأن الجميع صاروا فى قبضة يمينهم . . ولكن المدهش والمذهل ، والسر الذى لا أزال أبحث عنه ، والسؤال الذى يفتقد جواباً : ما الذى دعاهم للمضى فى ضرب النار لأكثر من خمس وأربعين دقيقة ! ! والمذهل أكثر وأكثر أنه بعد أن توقف إطلاق النار وقتل من قتل داخل الزنزانات ، أمر الجنود باقتحام هذه الزنزانات وقتل البقية الباقية بالعصى الغليظة . . ودارت عملية الطحن والعجن فى الشبان بصورة مرعبة . . ولم يرحمهم الصراخ والاستغاثة ، ولم يشفع لهم استسلامهم .

بعد أن تصور المدير أن معظم إخواننا قد انتهوا وأنه سجل لنفسه انتصاراً تاريخياً أمر رجاله بالتوقف وانتهت المعركة . . مخلفة وراءها دماء وأشلاء ومزقاً بشرية وأنيناً وهلعاً ورعباً لايتخيله العقل . قتلى فى أحضان جرحى ، ومروعون بين القتلى والجرحى ، يحاولون ادعاء الموت حذراً منه ، وأصوات مرعبة ، ولعن وسب ، شيء مرعب .. مرعب . . ولقد عشت ساعات القتل فى سجن التأديب . . عشت ساعات لا أرى الله إنساناً مثيلا لها ، يعلم الله أنني كنت أشد أذنى لأتأكد من

أننى ما زلت حياً . . وأهز رأسى لأتأكد أننى لم أجن . . لقد خيل إلى أننى فقدت عقلى للأبد – كانت أمنيتى الوحيدة أن أقتل وأقتل على عجل . . كنت عاجزاً عن تصور ما حدث ، وكنت عاجزاً عن تقدير ما أنا فيه . . وكنت أضعف من أن أفكر فيما ينتظر إخوانى . . . وأنا فى روعى وانزعاجى . . استدعيت لمقابلة المدير . . لم أستطع أن أفكر فيما سوف يلحق بى . . كنت فقط أتمنى ألا أعذب . . أن أقتل فقط . . القتل فيه راحة . . قبل أن أقترب من باب المدير أمرونى بخلع حذائى لأدخل حافياً على المدير فانصعت للأمر . . ودخلت عليه ففوجئت بوجود صلاح الدسوقى الششتاوى الذى كان يعمل أركان حرب وزارة الداخلية – قال لى المدير ما معناه : أنت نفذت بعد ما عملتها . . قلت له : أنا جئتك يوم الأربعاء (كان الحادث يوم السبت) السابق وطلبت منك تهدئة إخواننا . . فسكت المجرم ولم يتكلم . . ثم أمرنى بالانصراف . . ولعل هذه المواجهة دعته لعدم تمكينى من المثول أمام النيابة للتحقيق معى أو سماع شهادتى .

ولتسمع بقية القصة إذا كان بإمكانك أن تسمعها . . . اعتبرت البقية الباقية من إخواننا متهمين فى القضية ! ! . . فساقوهم إلى النيابة للتحقيق معهم . . ساقوا مائة وأربعين سجيناً للتحقيق معهم . . بعد أن قتل كم ! ! واحد وعشرون قتيلا .. وجرح كم .. واحد وعشرون جريحاً . . وجن كم . . . اثنا عشر . . والباقون شاء الله أن يعيشوا ليقولوا للناس كلمة . . لعل فيها عبرة . .

سيق هؤلاء الإخوة إلى النيابة . . للتحقيق معهم وسؤالهم لم لم تقتلوا ؟ ! أو تجرحوا ! ! ولا أعرف شيئاً عما قالوه . . ولعله موجود فى سجلات النيابة . . وإن كنت أعتقد أنها تعرضت لألاعيب لتغطية الجريمة . فمثلا ، علمت أنهم سحبوا بعض الجثث خارج الزنزانات ليقولوا أنهم إنما قتلوا وهم خارج زنزاناتهم . . يعنى قتلوا لأنهم رفضوا دخول الزنزانات ، منطق مذهل ! ! وعلمت أنهم طلبوا من سجين أن يشهد بأن إخواننا طلبوا منه أن يحضر لهم ديناميتاً لينسفوا السجن . . ولكن السجين يأبى أن يشهد . . وهذا السجين كان من المتهمين بالإغارة على المعسكرات البريطانية وسرقتها وقتل الجنود الإنجليز . . كانت حرفته سرقة المعسكرات البريطانية .

إن القتلة حاولوا إيجاد أى مبرر للقتل فعجزوا . . والسبب بسيط وبسيط جداً . . . فتمرد ١٨٠ سجيناً من تعداد السجن البالغ أربعة آلاف سجين . . يمكن قمعه ولو بتركهم فى عنابرهم يوماً واحداً فهذا فيه الكفاية ليعلنوا استسلامهم — وذلك لأن الزنزانات ليس بها طعام أو ماء يكفى لأكثر من يوم واحد . . أو يومين أو ثلاثة ! ! ثم يستحيل العيش بعد ذلك ويتحقق نصر الإدارة ! ! ولكن القتل والرغبة فيه . . والرغبة فى الانتصار فى معركة ترضى عنها الحكومة . ! ! وتكافىء عليها برتب أو علاوات أو مناصب ! ! هذه الرغبة كافية ليتجرد هؤلاء القتلة من كل القيم . . ليتجردوا من إنسانيتهم ومن رجولتهم ومن شرفهم . لقد قتلوا رجالا ما أروع رجولتهم ، وما أعظم أخلاقهم

وما أكرم معدنهم . . قتلوا رجالا . . كانوا يقومون الليل سجداً ركعاً في سجنهم ، ويحملون الأحجار وهم صيام في نهارهم . . قتلوا رجالا منهم من كان يقاتل الإنجليز في القناة ومنهم من كان يقاتل الصهيونية في فلسطين ، ومنهم من كان يقاتل البغي والظلم والفساد في مصر . . قتلوا محمد عفيفي . . وكان وحيد أبويه الشيخين الكبيرين ، وحيداً لا أخ ولا أخت له . قتلوا أحمد قرقر . . آية في الذكاء والإخلاص والصلاح والتقوى والعلم ، قتلوا محمد عطية ، قتلوا عشرات من الرجال وقتلوا ذاكرة لاتذكر أحب وأعز الناس على صاحبها . قتلوا ذاكرتي قاتلهم الله .. قتلوا ذاكرة يعلم الله أنني كنت أتحدى بها أقراني في المدرسة . . قتلوها . . ولكن بعثها الله لتكتب . . فالحمد لله .

وماذا حدث بعد ذلك ! ! ويحك أيها الإنسان ويحك ! ! جمعوا أكوام القتلى وكانوا واحداً وعشرين قتيلا ، وأرسلوا لأسرهم لاستلام جثثهم شريطة ألا يعلم عن موتهم أحد وألا تقام لهم جنائز . . حرموا عليهم البكاء والمواساة . . فمن رفض استلام الجثة ، وقد حدث ، ألقوا بها في حفرة في جبل السجن ، أما الجرحى فقد ألقى بهم في المستشفى وتركوا لمصيرهم وأما نحن الأيتام ماذا كان من أمرهم معنا .

اسمع بقية القصة . .

في اليوم التالي ساقوا « الأحياء » وكنت من بينهم إلى حفلة ضرب ، ضرب وحشي على مؤخر العنق « القفا » والضرب يقوم به العساكر في حضرة جميع « حضرات » الضباط . . ومع الضرب شتم وسب

لأسرى المعركة . . معركة انتصر فيها الجيش والبوليس على من . . ! !
شيء مؤلم . . مؤلم . .

ثم مـــاذا ! !

جاءونا بملابس منتنة قذرة وأمرونا بأن نتجرد من جميع ملابسنا الداخلية ، ونرتدى هذه الملابس المنتنة الممزقة ، فاستجبنا . . ثم ماذا ؟ ؟ حشرونا فى مكان واحد . . وأحاط بنا الجنود . . ماذا سيحدث لنا ! ! . من يجيرنا من هذا الهول الكبير من . . ! ! من يسمعنا من يرانا . . ! ! الله فقط .

ووضعوا القيود الحديدية فى أيدينا ، ثم حشرنا فى عربات مضت بنا إلى مكان علمنا فيما بعد أنه سجن القناطر ، وشهدنا ثلاثة أشهر من العذاب .

جند لنا ضابط شاب حديث التخرج يدعى سامى فيه طموح وظيفى يريد أن يحققه عن طريق الإجرام ، وقد أوتى حنجرة خشنة استعملها لإرهابنا وإزعاجنا . . وقد وضع له نظام طبقه بأسلوبه الخاص ، ويقضى هذا النظام باستعراضنا صباحاً ومساء فى طوابير ، نجرى بين صفين من الجنود وعلى رأسهم صول يدعى على شلقانى يستمتع بقدر وافر من الإجرام والغباء ، والجهل . . ثم ينهال علينا الجنود والصول والضابط بالكرابيج والعصى ، وبعد أن نجهد يأمروننا بحمل أوعية البول لنلقيها فى المراحيض ، ثم نقضى حاجتنا على عجل ، هذا كله

دون أن نتكلم أو نبدى أى طلب أو نشكو من أى شيء . . ثم يجرى علينا تفتيش يومى ، تفتش زنزاناتنا ، وملابسنا وهى كما قلت خرقة ملطخة بالزيت ، لاتكاد تستر عورتنا . . ثم يقلب البرش الوحيد والبطانية الوحيدة وينفضان ليتعرف السجان على ما نخفيه . . ولقد بلغ بهم الأمر إلى درجة أن أحد الجنود أمرنى بأن أفتح فمى ليفتشه فاستجبت لطلبه . . وقلت لنفسى بعد أن انتهى من مهمته لعله أمر بأن يفتش عن الكلام الذى سبق أن قلته وأدنت من أجله . . وأفظع أنواع التعذيب النفسى أننا كنا نؤمر بالتجرد تماماً من ثيابنا . . ثم يأتى الحلاق بماكينة شعر فيحلق لنا عانتنا ، منظر رهيب مفزع لا ولن أنساه . . ولكن ماذا أفعل أمام عزمى على ذكر الصدق والحقيقة . . الحقيقة بكل مرارتها وألمها ، وماذا بعد ؟ لقد كان يزج بنا جماعات إلى حمام مفتوح ونحن عرايا . . ولم يكن أمامنا من حيلة إلا أن نغمض عيوننا اتقاء النظر إلى العورات ! ! كان العنبر الذى نعيش فيه أشبه ما يكون بالقبر الذى دفع إليه إخواننا . . الفارق الوحيد أنه كان قطعة من جحيم أما إخواننا الشهداء فما نظنه إلا كان منيراً مشرقاً برحمة الله . . كان قبرنا موحشاً ساكنا إلا من صراخ الضابط الطفل . والصول الغبى ، والجاويش عسل – سمى بالجاويش عسل لأنه كان يشرب العسل الذى يصرف لنا ولا يعطينا منه إلا القليل – كانت هذه الأصوات تذكرنا بما يقال عن منكر ونكير وعذاب القبر . . ما أفظعهم وما أفظع ذكراهم . . ! ! أما الطعام والشراب فقد كان قليلا ورديئاً ، وكان يسرق نصف أطايبه .. فكما قلت أن الشاويش عسل كان مغرما

بشرب العسل ، أما شلقانى فكان يأكل أطايب اللحم هو وجنوده ليتقووا على الضرب . . ولذكر على شلقانى هذا وغباءه وإجرامه . . جرى بينى وبينه فيما بعد حديث غبى . . . بعد أن هدأ العذاب قليلا بعد مضى ثلاثة أشهر — قال لى ! أنتم مش بتقرءوا فى القرآن « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلم تعصون الحاكم ؟ قلت له : وأنت لم عصيت الحاكم . . قال لى بفزع : أنا لم أعص الحاكم ! ! قلت : كم سنة لك فى الجيش؟ قال : عشرون سنة، قلت له : ألم تكن تطيع خلالها الحاكم السابق للثورة وهو حيدر باشا وملكه ؟ ؟ قال متلجلجاً : أنا كنت العبد المأمور . . فأفهمته أن طاعة الحاكم لاينبغى أن تكون فى معصية الله — لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق — ولكنه « معذور » لأنه آلة تنفيذية يؤمر فيستجيب للأمر ! ! وليس معنى هذا أننى ألتمس له عذراً فى تعذيب المسجونين ، لأن التعذيب لا يقره القانون أو الدين ، والمطلوب منه ومن غيره أن ينفذوا إرادة الحاكم فى حدود القانون ، ستقول لى إنه لو لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه سيجازى من رؤسائه ، وردى على هذا قصة رواها لى على شلقانى بغباءه . . قال لى وهو يشير إلى جندى أسود اللون ! . أن هذا الأسود كان يرفض الأمر بضربكم ، فزعلنا منه . . قلت له : وماذا تم بشأنه قال ببلاهة ! أخذه حضرة الضابط لميز الضباط — مقصف الطعام — فهو يقدم الطعام للضباط ويأكل كل يوم نصف فرخة . . قلت له : وهل هذه عقوبة .. قال ببلاهة .. والله ما أنا عارف هم عاقبوه أم كافأوه . . ! ! قلت له : يظهر أنه كان نظيفاً . . ولم يفهم

معنى كلامى . . وتفسيرى لهذا أنه بعد أن شعر الضباط بترفع الرجل عن الإيذاء طابت أنفسهم أن يأكلوا من يديه ، وذكر هذا الجندى يدعونى للقول بأنه كان بالسجن الحربى بعض جنود الجيش ممن مستهم الإنسانية بشكل أو بآخر كانوا يتحايلون للإفلات من تعذيبنا .

ولم يكن لهم من جزاء إلا الإبعاد عن مسرح العذاب ، والحرمان من مكافآت هزيلة ، ولقد صادفتنا أمثلة لهذا الجندى فى معتقل سنة ١٩٦٥ ولقد سمعت بأذنى أحد مخبرى المباحث وهو يدعو الله على زميل له كان يشتد فى تعذيبنا ، كان هذا المخبر يضرع إلى الله أن يخلصه من العمل المشين ، سمعته يقول : أنا يا رب مش عاوز بدل الإجرام اللى بيدوه لنا ،الله الغنى . وعلمت أن هذا المخبر نقل إلى جهاز آخر من أجهزة أمن شركة من الشركات . . كما علمت أن أحد ضباط المباحث اعتقل لأنه اقتنع بما يدعوا إليه شباب التبليغ . وفى معتقل أبو زعبل لمست تعاطف بعض ضباط البوليس معنا فكانوا يحاولون جهدهم التخفيف عنا ومساعدتنا ، لقد أبكانى أحد ضباط السجون وهو يناديني بصوت خفيض ويقول لى وأنا فى أبى زعبل وقد تورمت أقدامى مش عاوز حاجة يا « أستاذ حسن » . . ثم عرض على ليشترى لى دواء على حسابه . . هذا الضابط الإنسانى أخشى أن أذكر اسمه ولا أملك إلا أن أدعو له بالخير والبركة .

لنعد إلى حديثنا .. استمر الضرب والإيذاء والتجويع طوال ثلاثة أشهر ، لا نرى الشمس ولا الضوء إلا من خلال طاقة تغطيها قضبان حديدية .. وكانت سلوانا الوحيدة حفظ القرآن .. ولما كانت

المصاحف محرمة علينا فقد لجأنا لأسلو ب الكتاتيب فى حفظ القرآن .
ولقد رزقنى الله بأخوين فاضلين الشيخ عبد الرازق أمان الدين وهو رجل آية فى صلاحه وتقواه والتزامه ؛ وكان يحفظ القرآن ، وشاب هو حسين على ، وكان متفتح الذهن صافى الذاكرة .. وقد تمكنت بفضل أستاذى عبد الرازق من حفظ نصف القرآن فى ثلاثة أشهر .. وإن كنت وللأسف الشديد قد أنسيته .. ولم تكن لنا تسلية إلا لعب الشطرنج ، ولكن كيف نصنع القطع ورقعة الشطرنج ، القطع كنا نصنعها من الفلفل الأخضر ، أما الرقعة فكنا نرسمها على الأرض تحت الحصر بحيث يمكننا مداراتها بسهولة إذا داهمنا خطر .

أما مناقشتنا الفكرية فكانت حبيسة بداخل أنفسنا ولا تتعداها إلى الخارج ولعل ركام الظلام الذى كان يجثم على نفوسنا ورؤوسنا .. واعتقادنا بأن هذا العذاب سوف تتصل أسبابه ، لعل هذا كله عطل تفكيرنا وجمد ذهننا . . ولقد ابتلينا خلال تلك الفترة بلون جديد من الابتلاء ما أفدحه ، فلقد أصيب بعض إخواننا بحالات نفسية أو جنونية غريبة . أزعجتنا أيما إزعاج .. فقد وقع أكثر من اثنى عشر شاباً صرعى مرض نفسى وكان المرض يفاجئهم دون مقدمات ، أحياناً كنا نستيقظ فى الصباح فنرى ملامح أحد إخواننا وقد تغيرت ، وهو يهذى بكلام غير مفهوم أو يفقد ذاكرته لأعوام مضت ، أو يبكى كالأطفال ويطلب حناناً من إخوانه شأن الطفل الصغير مع أمه .. ولقد وقعت فى حجرتى حالتان من هذا النوع .. أذكر منها حالة شاب طلب منى فجأة أن يضع رأسه على رجلى ، كشأن الصبى مع أمه فظننته يمزح ، ولكنه أصر فاستجبت وبعد لحظات غاب عن وعيه وبدأ يهذى بكلام غريب . فلما أيقظته

كان فى شبه غيبوبة ولم يتذكر شيئاً مما قاله .. لقد روعتنا هذه الظواهر حتى خيل إلينا أننا سوف نمضى جميعاً على هذا الطريق .. كان الواحد منا ينام الليل ولا يدرى ماذا سيكون عليه حاله فى غده .. قد يجن كإخوانه ! ! ما أعنفها محنة .. تصورها .. تخيلها أيها القارئ .. تخيل فقط لأننى أرجو لك العافية .

ماذنبنا .. لاندرى ... ماجريرتنا .. لاندرى .. ماذا نفعل حتى يخفف عنا العذاب .. لا ندرى . أين الحكومة .. أين القضاء .. أين الصحافة .. أين الأدب والعلم والأدباء .. أين الجامعة .. أين الناس .. أين الإنسان .. لا أحد .. لا شيء فقط إلا الله .. كنا نحس به فى أنفسنا .. كنا نشعر أن الله معنا .. إن ابتلينا شكرناه وسألناه العافية .. وإن قتلنا سألناه الجنة والرحمة .. وهل لمثل هذه المحن أحد إلا الله .

بدأ العذاب يخف عنا تدريجياً ثم سمح لنا بالخروج ساعة من نهار ، لنجفف فى الشمس ونحرك أقدامنا التى كادت تفقد القدرة على المشى ويوم أن خرجنا والتقت أعيننا أحسسنا باليتم ، وشعرنا بالفراغ الذى تركه إخواننا الذين قتلوا فى الليمان ،وبدأ شريط الحوادث يتسع شيئاً فشيئاً حتى تكشف لنا حقيقة المأساة تفصيلا .. ولن أستطيع ذكر شيء منها فى كتابى هذا لأنها تحتاج لكتب أرجو أن تسجل فى يوم ما وتتكون منها مكتبة يطلق عليها أسماء الشهداء .. إننى لا أكاد أتصور كيف يعيش الذين ارتكبوا مذبحة طره فى أنفسهم وبيوتهم وبين أهليهم . إن الذى ارتكب حادث هيروشيما ونجازاكى فقد عقله بعد أن شهد ثمار ما فعلته يداه .. ولم يغفر له ضميره أنه كان عبداً مأموراً ..

لم يغفر له .. وفى ظنى أن هؤلاء الذين ارتكبوا هذا الحادث كانوا أقسى قلوباً من مرتكبي حادث نجازاكي وهيروشيما ، وذلك لأنهم مارسوا التعذيب مراراً ودون رحمة أو شفقة .. مع يقينهم أن من يعذبونه .. ليس خائناً لوطن أو محارباً ضد دولة أو جاسوساً .. وحتى لو كانوا كذلك ، لو كانوا خونة أو جواسيس أو أسرى ، فالمجرم له عقوبات حددتها الحروب أو القوانين .. الحروب تقضى بالقتل أو الأسر .. والقوانين من يخالفها عقوبته القتل أوالسجن ، ونحن ماكنا نمتنع على عقوبة يريدونها لنا ، لقد طلبنا القتل .. فرفض ، ثم سجنا بلا ذنب وقبلنا السجن .. فلم كل هذا العذاب ؟؟ .. من يكون هؤلاء الذين يعذبوننا .. مصريون لا .. مسلمون .. مسيحيون .. يهود .. لا .. بشر؟لا .. حيوانات .. لا...لا... حشرات.. عقارب.. ثعابين.. لا.. هم صنف آخر ، هم شيء كتب عليه الشقاء ليبتلى به مؤمنون فى الأرض هم من أظن أنه ورد فيهم قول الله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون»

وأظن أن المبتلين ورد فيهم قول الله تعالى :

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ».

لقد سمح لنا بعد جهد كبير بممارسة الرياضة ، والعمل فى الورش .

كما سمح لنا بالزيارة ، وكانت محرمة علينا ، وكان لقاؤنا مع ذوينا عبر الأسلاك لقاء دراميا حزينا ، وكان فرحهم بنجاتنا لا حدود له ، ولقد رأيت طفلتى الصغيرة الحبيبة وقد كبرت ولكم تمنيت لو أضمها إلى صدرى ، ولكن الأسلاك الشائكة والقلوب الحديدية رفضت أن تمن على بما تهوى نفسى .. ولقد علمنا فيما بعد أن سبب هذا التخفيف مرده إلى ما كانت تذيعه بعض الإذاعات المعادية لعبد الناصر ، ولم تكن الإذاعات متعاطفة معنا بقدر ما كانت حريصة على إثارة الرأى العام ضده .

ولقد تأكد لنا بعد حادث طرة أن الاستعداد لقتلنا جملة أو فرادى كان قائماً ولم يكن يحول بين تنفيذه ضمير أو دين أو وطنية .. كما تبين لنا أن الأجهزة المأمورة كان عندها استعداد فطرى لتنفيذ ما يحبه الحاكم وزيادة .. ولعل هذا ما دعانى لأن أقبل مبدأ تأييد الحكومة لنفلت من السجن ، وانتقل هذا المبدأ معى إلى عام ١٩٦٥ عندما اعتقلنا للمرة الثالثة ، ولو كان ثمن هذا الإفراج الهتاف بحياة عبد الناصر صبحاً ومساء والخطابة والكتابة لتمجيده ، وفرض على هذا المبدأ فكرة الفرار من مصر بعد أن تحولت إلى أرض عذاب ..

أعود إلى حديثى عن السجن .. قلت أنه بدأ التخفيف عنا تدريجياً .. ولكننا ابتلينا بضابط اسمه عبد العال سلومة (قيل إنه ابتلى بالسرطان قبل موته) وهو يشبه الإنجليز شكلا وفى الموضوع .. فهو فضلا عن ملامحه التى تشبه كثيراً ملامح الإنجليز ، كان يستمتع بالبرود الإنجليزى

القاتل ، كان قادراً على اللعب بأعصابنا والتسلى بنا ، بل كان يستمتع بإثارة أعصابنا ، وعلى الرغم من أنه كان من الأسباب غير المباشرة لحادث طرة ، فإنهم تعمدوا انتدابه لمواصلة هوايته المحمومة فى إثارة أعصابنا والضغط علينا ، والأغرب من هذا أنه انتدب ليلاحقنا فى معتقل أبى زعبل ثم معتقل طرة الأخير . وهو على طول الطريق لا يتخلى عن وظيفته فى إثارة أعصابنا والتلاعب بنا ، ولقد أضاف إلى وظيفته هذه وظيفة أخرى وهى محاولة تجزئة الإخوان إلى مؤيدين ومعارضين ، فبدأ يقرب منه فريقاً سموا بالمؤيدين ،وأبعد فريقاً آخر سماهم بالمعارضين ولا يهمنا قليلا أو كثيراً تحليل شخصيته أو سبر أغواره ولكن آلمنى جداً ما علمته من أنه كان فى يوم ما يدعى أنه من الإخوان المسلمين . وأن ما فعله بنا لم يكن أكثر من إثبات ولائه للنظام القائم .

لبثت مع إخوانى قرابة ستة أشهر نشهد صوراً متقابلة من التخفيف والتشديد ،وانتهى مقامى فى سجن القناطر بمرض غير معروف اضطر إدارة السجن لإرسالى إلى سجن مصر لأعالج هناك .. وكان هذا التغيير بالنسبة لى أمراً حيوياً ، إلا أنه حرمنى من مجموعة ارتبطت بها ارتباطاً روحياً وعاطفياً وما زلت أعيش إلى يومى هذا فى غمرة عواطفهم . ولقد علمت فيما بعد أنها عانت الكثير من ألاعيب عبد العال سلومة .. ولولا حكمة رجال أذكر منهم عبد الحليم حسين ومحمود الشاوى وحسن أيوب لما أفلتت المجموعة من محن متلاحقة متنوعة .. ولقد شهدت فى سجن مصر وصول أول فوج من المؤيدين من إخوان الواحات وتناقشت معهم .. فى أمر التأييد ، وأدركت منهم أن الخروج من

باب السجن هو الهدف ، أما التأييد وغيره فهو وسيلة لهذه الغاية .. ومع هذا كانوا يخوضون فى مسائل فرعية وفلسفات لا مبرر لها — وكلها تنتهى للرغبة فى الخروج من السجن ، وقد علمت منهم أنهم تصادموا مع مجموعة أخرى سميت بالمعارضين أو الملتزمين والتى كانت تضم معظم زعماء الإخوان .. وفى اعتقادى أن الإخوان لو كانوا فى ظروف عادية لما تعرضوا لمشكلة مؤيدين ومعارضين ، ولعل أكبر قرينة على هذا أن متشددى المعارضين صاروا فى محنة ١٩٦٥ من غلاة المؤيدين .

أما بالنسبة لموقفى من التأييد فكانت تتجاذبنى عدة عوامل منها أن التأييد قد يضر بقاعدتى الشعبية فى الإخوان ، وهذه القاعدة كنت أحرص عليها ومازلت ، ولكن وأنا صادق فيما أقول ، لم يكن حرصى لغرض شخصى ، كأن أكون عضوا بمكتب الإرشاد أو أتولى مركزاً قيادياً فى الجماعة ، الواقع أن الله متعنى بعدم الرغبة فى مثل هذه المناصب ، ولكننى كنت حريصاً على الذكر الطيب والعلاقة الحميدة ، وكنت دائماً أتمثل ما جرى لمصطفى مؤمن بعد أن استثير الإخوان ضده وعزل عن الجماعة ومن أعز أحبابه فيها .. هذا العامل كنت أرصده أمامى وأنا أفكر فى التأييد ، ثم إننى كنت مبقياً على قدر قليل من تقديرى لسياسة زعماء الجماعة الذين كانوا يميلون للتشدد مع الحكومة .. يضاف إلى هذا أننى كنت أراجع نفسى دينياً فى تأييد حاكم لا يجهر بالحكم بما أنزل الله .. والشىء الذى كنت أخشاه هو أن أقدم على تأييد الحكومة دون

أن أحظى بالإفراج الذى تاقت نفسى إليه ، وخاصة بعد أن شعرت بأن المحنة شقت على زوجتى وأهلها الذين تحملوا الكثير فى سبيلى .. كل هذه العوامل مجتمعة أو منفردة أخرت من تأييدى .. فلما نقلت إلى مستشفى قصر العينى للعلاج حاولت الدفع بالوساطات لتسعى للإفراج عنى ، وبالتالى أعفى نفسى من التأييد كوسيلة للإفراج .. والواقع أنى أعتبر أن هذا الموقف لم يكن سليما ، وكان الأفضل أن أواجه الحقيقة وأضع نفسى فى موقف إخوانى الذين ليست لهم من وسيلة إلا التأييد ، ومع هذا فقد فشلت جميع محاولاتى وتبين لى أن السعى يصطدم دائماً بجهاز المباحث والمخابرات الذى يعتبر المرجع الأخير فى قضية الإفراج .. وهؤلاء كانوا يقولون عنى أنى شخصية مجمعة أى نستطيع تجميع الإخوان حولها .. ومن الذين أذكر لهم فضل السعى للإفراج عنى مجدى حسنين . والمرحوم الطيار عز الدين ناصر وأحمد مكاوى . وأشخاص كرام قد لا يحبون أن أذكرهم .. أقول أنه بعد أن استنفدت الوساطة أغراضها فكرت فى التأييد ، فكتبت رسالة أتبعتها بثانية وثالثة ورابعة ، ولا أذكر الآن عدد الرسائل والبرقيات التى أرسلتها للتأييد ، ولكن يبدو أن كل محاولاتى قد تبددت وشعرت أنهم يطمعون أن أتدنى لدرجة أخرى وهى أن أكتب تقارير فى حق زملائى .. والواقع أن هذا الأمر كنت وما زلت أعتبره حراماً لأن فيه إضراراً بآخرين .. وفى نفس الوقت هو عمل ينتقص من قدر الرجل وشهامته .. ومن فضل الله على أولا وآخراً أنى لم أبتل بهذا الأمر الذى تعرض له بعض إخواننا سامحهم الله وعافاهم .

لقد ظللت أكتب لعبد الناصر خطابات تأييد لأكثر من عام ونصف وأنا بمستشفى قصر العيني ، ولكن لا مجيب . . وأخيرا استعان المرحوم أحمد فراج طايع الذى كان وزيرللخارجية بصديق له للإفراج عنى لدى عبد الناصر فوافق بعد أن تأكد من تأييدى له .. وكان يوماً بهيجاً مفرحاً فى حياتى .. يوم أن ضمنى بيتى الصغير زوجتى وطفلتى بعد رحلة من العذاب العنيف ومعاناة لا حدود لها .. وآلام وأحزان ومآسى تعرضت لها زوجتى وتحملتها فى صبر واحتساب عند الله .

وسافرت إلى قريتى فى أقصى الصعيد لأستقبل بها استقبال الفاتحين ؛ فلقد استقبلنى أهل المطاعنة الطيبين بترحاب لا مثيل له .. وكان الناس متأثرين بشخصية عبد الناصر لأبعد حد ، فأخذوا يسألوننى عما إذا كنت قد تصالحت معه أم لا . . وكانوا يرجون لى منصباً فى الحكومة كدليل على رضاء عبد الناصر عنى .. ولقد علمت منهم أنهم أرسلوا ستمائة برقية يتشفعون بها لدى عبد الناصر لتخفيف الحكم عنى .

هذه هى خاتمة رحلة السجن الأول الذى قضيت فيه ستة أعوام ونصف .

* * *

أحداث سنة ١٩٦٥

توهمنا خطأ بعد أن أفرج عنا من السجن أننا سوف نعيش فى سلام مادمنا نسالم الحكومة .. وهذا ما أفهمنا إياه رجال المباحث العامة وحتى يتحاشى بعض إخواننا مواطن « التهم » بل « والشبهات » انكمشوا على أنفسهم وعكفوا على عيشهم وتجنبوا كل ما يتصل بالإخوان .. بل إن بعضهم تجنب حتى صلاة الجماعة فى المساجد حتى يقطع صلته بكل الأسباب التى قد تؤدى به إلى السجن .. وتجاوز البعض الحد ، فتظاهروا بأنهم قدهجروا دينهم وأخلاقهم..حتى أن رجال المباحث قالوا إنهم ضبطوا — أثناء التفتيش عنا فى سبتمبر ١٩٦٥— بعض الشباب وهم يجلسون حول مائدة رصت عليها زجاجات خمر .. إن هذه الصورة قد تكشف عن مدى ثقل المحن وجبروتها .. ومع هذا فإن هذه الصور المشينة كان يقابلها صور أخرى مشرقة ، فقد عزم بعض شباب الإخوان على ألا يكفوا عن العمل ، ولكن بأسلوب جديد يتسم بالمشروعية بمفهوم الحكومة وحرصت أن أكون من هذا الصنف.. وكان قرارى الأول هو العمل المفتوح للإسلام .. وكان قرارى الثانى الاندماج ما أمكن فى تجمعات الحكومة السياسية كالاتحاد الاشتراكى والاتحاد القومى . ولكن هذه القرارات لم يكن من السهل تنفيذها ولقد صدمت من أول الطريق بالأجهزة الخلفية .. وكانت القصة كالآتى .. فبحكم صلتى السابقة والقديمة بكمال الدين حسين طلبت منه أن يلحقنى بوظيفة فى شركة أو مؤسسة من المؤسسات التى كان يرأسها ، ولكن الرجل لم يجبنى إلى طلبى وظللت ستة أشهر لا أجد عملا ، ومع أننى

كنت قد افتتحت مكتباً للمحاماة ، إلا أن الزبائن كانوا يفرون من مجرد الاقتراب من باب المكتب ، فأعدت الكرة على كمال الدين حسين ، الذى أخبرنى عن طريق مدير مكتبه أنه عيننى فى وظيفة قانونية بالاتحاد القومى بثلاثين جنيهاً .. فترددت فى قبول الوظيفة إلا أننى قبلتها بعد أن نصحنى مستشار طيب كان يعمل بالاتحاد حتى لا يستاء منى المسئولون ، ولما كنت حريصاً على ألا أتعرض لمتاعب ، وفى نفس الوقت كنت فى حاجة إلى إعالة أسرتى فقد قبلت الوظيفة على مضض ، ولقد ذهب تفسيرى لاختيارى هذه الوظيفة أن الأجهزة الخلفية قد أوحت بأن أورط فى أحد أجهزة الدولة الرسمية حتى أظهر بمظهر الخارج عن الإخوان والمتحالف مع الحكومة .

حاولت جهدى أن أتخلص من هذه الوظيفة فسعيت بكل وسيلة كريمة مستعيناً بصديق قديم لى لألتحق بعمل آخر يمكننى من الانسحاب من الاتحاد ، وبعد جهد وفقت للالتحاق بعمل فى أخبار اليوم ، وفرحت أيما فرح بالعمل الجديد ، وشجعنى ترحيب مصطفى أمين الذى كان رأس المؤسسة ، فقد رحب بى الرجل أمام المحررين وحرص على إعطائى بعض الفرص ، منها أنه مكننى من السفر إلى إنجلترا بدعوة من شركة طيران عربية . . ولقد خيل إلى وأنا بأخبار اليوم أن بإمكانى أن أكتب مقالات تشبه خطبى . ولكن الصحيفة لم تتسع لأمثال تلك الكتابات . فاندمجت فى عمل تحقيقات صحفية ثم التحقت بقسم الأخبار الذى كلفنى بمتابعة أخبار وزارة المالية ووزارة الإسكان . . وفجأة تغير كل شىء فى المؤسسة الصحفية الكبرى بعد أن استولى الشيوعيون على كل أجهزة المؤسسة ، وكان

من ثمار هذا التغيير فرض قيادات جديدة ، وأقلام جديدة ، وتحطيم العناصر « الرجعية » ، وكعادة الشيوعيين فى كل مكان ، فإنهم بدءوا يحيكون المؤامرات ضد خصومهم ويوقعون بهم ، ووجدتنى أفكر من جديد فى مقاومة الزحف الشيوعى ولكن بأسلوب يعتمد على العقل لا اليد ، ففكرت فى الاتصال بخالد محيي الدين الذى كنت وما زلت أعتقد أنه وإن كان شيوعى التفكير إلا أن سلوكه يختلف عن سلوك الشيوعيين ، وظنى بالرجل أنه على خلق ، ونجحت خطة الالتحام به ، ثم فاتحته بصراحة أن بعض العناصر — أعنى بهم الشيوعيين — تحرص على عزله عن الصحيفة ، ويبدو أن الرجل كان ضائقاً بأسلوب الشيوعيين التقليدى . إلا أنه كان عاجزا عن مقاومتهم ، لأنهم كانوا يحيطون به فى كل مكان .. ويظهرون له ولاء أحسبه كاذباً .

فى غمار هذه المعركة فوجئت ذات يوم بخالد محيي الدين يطلب منى أن أنقد كتاب سيد قطب « معالم على الطريق » فأدركت مدى ورطتى . وكذلك خطئى لأننى أولا وأخيراً سعيت للعمل فى جهاز إعلامى حكومى مسير ، ولكن شاء الله أن ينقذنى من ورطتى وهدانى لرد ظننته وقتها أنه مقنع ، كان ردى من خلال خبر سمعته وأنا فى طريقى إلى الصحيفة أن الكتاب قد صودر ، فعجب خالد ولكنه وافقنى وسكت ولم يضغط على .. وبعد يومين من هذا اللقاء وجدت نفسى فى المعتقل وكان ذلك فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وعلى الرغم من صدور قرار الإفراج عن جميع المعتقلين من العاملين فى أجهزة الإعلام إلا أننى استثنيت من هذا القرار .

بعد خروجى من المعتقل فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ وجدت قيادة الصحيفة قد وكلت للأستاذ هيكل الذى شعرت بأنه حريص على الابتعاد منى ، ثم تسلم القيادة الزعيم الشيوعى الكبير محمود العالم ، وكان الرجل مهذباً رقيقاً معى ، وإن كنت أشك كثيراً فى أنه كان راضياً عنى فى الصحيفة ، لأننى معروف بعدائى الشديد للحركة الشيوعية .. وذلك لأننى كنت وما زلت أعتقد أن الحركة الشيوعية فى مصر كانت الببغاء الذى ينطق بلسان الاتحاد السوفيتى ، كان عقلها سياسياً أكثر منه فكرياً . وهذا ما جعلنا ننظر إلى الشيوعيين باعتبارهم عملاء لا مواطنين . ثم أن عداءهم الصريح للإسلام وتعاليمه كان من أسباب نفورنا منهم .

بقى أن أضع حقائق عن تجربتى الصحفية .

أولا : أن الصحافة على الرغم مما قال من أنها كانت تمارس عملها فى حرية إلا أن حريتها كانت محكومة بخلفية عنيفة ، كانت القيود المفروضة عليها تتدرج من علياء القيادة العليا إلى أن تصل إلى أدنى الرتب فى الأجهزة الحكومية السرية ، وكان من المفروض على الصحافة أن تؤكد أن جمال عبد الناصر هو الإنسان الذى فعل ويفعل وسيفعل كل خير للشعب وللإنسانية كلها .. كان مقدساً لا يخطئ ولن يخطئ ، كان هو مصر ، وكانت هى جمال عبد الناصر . فلما ألغى حتى اسمها صفقنا له جميعاً ، وآمنا باسمها الجديد وهو الجمهورية العربية المتحدة .. هذا ما كانت عليه حرية الصحافة ، حرية كتابة الكلمة التى تؤله عبد الناصر .. ! ! وترفض كل ألوهية عداه .. ! ! وكانت حرباً ضارية على من عداه ومن عاداه ، كان يأمرها بل

يشير إليها أن ترفع قدر فلان فتقعده على كرسى العرش ، وكان يأمرها بأن تخسف قدر غيره فتكتشف فيه سيئات العالمين . . ! !
وكان للأسف الشديد معظم الصحفيين مدفوعين إلى العمل بإرادة الرجل الفرد .. بل كانوا يتسابقون لمرضاته .. ولعل عذر القليل منهم يمكن أن نقبله الآن لأنهم كانوا واقعين تحت سلطان أجهزة جبارة قادرة على حرمانهم من رغيف الخبز ، ومن رؤية النور لشهور أو لسنين ، ولكن الكثير منهم كانوا مدفوعين بالرغبة فى الاستزادة من الخير . كانوا يجدون فى أسلوب المدح والذم والاستجابة لهوى القيادة ما يدفع بهم إلى المراكز العالية فى صحفهم ، ولقد سمعت الكثير من قصص الصحفيين الذين كان يسيرهم جاويش أو صول كان يتحكم فى مقدرات أخبار اليوم لفترة طويلة ، ثم شاهدت صورة من الحكم الشيوعى للصحيفة الذى كان يستمد إرادته من رضى عبد الناصر ، ولقد خرجت بتشخيص لحقيقة العاملين فى الصحيفة ، رددته كثيراً بينى وبين نفسى ، كنت أقول إن الذين يعملون فى الصحيفة إما المفروض أو مسنود أو مردود .. والمفروض هو من فرضته السلطة وعينته فى مركز من المراكز العالية كرؤساء مجالس الإدارة والمديرين ، والكتاب الكبار ، أما المسنود فهو من له علاقة بهذه الشخصيات المفروضة ، أو من له انتماء لجهاز من أجهزة الأمن . أما المردود فهم عدا هؤلاء أو أولئك .. وكنت أسمى نفسى من المردودين .. ومع هذا فإننى لا أنكر أننى حاولت أن أترضى عبد الناصر بكلمة موضوعية فكتبت فى إحدى المناسبات مقالة تمتدح أعمال الثورة البناءة ،وكنت أستهدف النفاذ من خلالها إلى السماح لى بالكتابة على نطاق واسع ،

ويظهر أن المفروضين أدركوا قصدى فسجنوا الكلمة . . وأنا لا أبرئ نفسى مما كتبت ولكنى ألتمس بعض العذر لنفسى لأننى وجدت فى جو مشبع باتجاه معين ، وكنت أحرص على أن أخرج من الدائرة المحكمة حولى . كما أضيف إلى هذا عذراً لا أقبله الآن من نفسى وهو أننى تأثرت بالدعاية التى كان يطلقها جمال عبد الناصر من حوله ، حتى توهمت أن عبد الناصر هذا لا غالب له من الناس ، بل إننى سمعت بعد وفاة عبد الناصر من أحد الإخوة الذين كانوا مندفعين وراء عبد الناصر بجنون قوله أنه ما كان يتصور أن عبد الناصر سوف يموت : هذه الأعذار المقبولة أو غير المقبولة ، أودعها الأجيال كتجربة مارستها بنفسى وتركت آثارها وبصماتها فى حياتى . والأمر الذى أحمد الله عليه أن منطلقى كان من خلال عقيدة متأصلة فى نفسى ، من خلال الإسلام ولم أقل من خلال الإخوان ، لأننى أومن أن الإخوان فى حد ذاتها ليست عقيدة ، ولكنها تجمع ينشد العمل لعقيدة .. ومن خلال هذا المنطلق كنت أعمل وما زلت أعمل من خلال إسلامى وإسلامى فقط ، وهذا طبعاً لا ينفى حبى وتقديرى لدور الإخوان فى الحياة العامة .. وفى نفسى وفى تاريخى ، بل إن الإخوان أعطتنى من الذكر والاسم والتربية ما لم أكن أحلم به .. ولعل نقدى لها الآن هو خير برهان على حبى وتقديرى لها ، وسواء رضى الناس عن هذه الحركة أو سخطوا عليها فإنها كانت ولا تزال تحدث تأثيرها الجذرى فى كل الحركات الإسلامية والتحررية والوطنية القائمة الآن فى العالم العربى والإسلامى بل والعالمى .

وعلى الرغم من قسوة ضربات عبد الناصر إلا أن رجال الحركة لم يكفوا

عن العمل الجاد لأمتهم ، أذكر أننى زرت النادى المصرى فى لندن عام ١٩٦٣ ودعيت بحكم مهنتى الصحفية لحضور اجتماع للأساتذة المصريين فى لندن ، وهناك فوجئت بوجود أحد إخوانى وهو الدكتور المنوفى الذى كان متهماً معى فى قضية مسجد الروضة وهو يرأس اجتماعاً لكبار الأساتذة المصريين ، وذلك بعد اختياره من جميع الطلبة العرب لرئاسة اتحادهم. وعلمت أن كثيراً من قادة الحركات الإسلامية فى أوربا وأمريكا كانوا ينتمون فى يوم ما للجماعة . . ولقد قام الكثير من شباب الإخوان المسلمين بأدوار رئيسية فى الحركات الوطنية والتحررية فى العالم العربى . ويدعونى هذا الاستطراد لذكر أبو عمار « ياسر عرفات » إن هذا الرجل الذى ملأ اسمه وذكره العالم كله ، كان فى يوم ما منتمياً لحركة الشباب الجامعى الذى كان يحارب فى القناة وهذه الحركة كما سبق أن ذكرت انبثقت من داخل الإخوان .. ولا يعنى هذا أن ياسر كان من الإخوان ولكنه كغيره آمن بالجهاد ورضى عن قيادة الإخوان . ولولا خشية إحراج رجال لهم مكانتهم لذكرت للقارئ ارتباطاته القديمة بالإخوان ..

أخلص من هذا الاستطراد أن الجماعة قامت ولا تزال تقوم بدور توجيهى طليعى فى العالم العربى والإسلامى .. بارك الله خطاها وبارك خطا العاملين المجاهدين .

وليسمح لى القارئ أن أعود به إلى تجربتى الصحفية وانعكاسها على نفسى .

ثانياً : يقولون إن الصحافة هى صحافة الخبر .. هذا الرأى

قد لا يقبله البعض وخاصة من يدينون بالشيوعية ، أو من يخضعون لحكم الفرد المطلق ، والمؤمنون بأن الصحافة هى صحافة الخبر يستندون فى نظريتهم إلى أن الإنسان بغريزته يحب أن يعرف جديداً ، وجديداً يهمه سواء على المستوى الشخصى أو الوطنى أو العالمى .. هذه الغريزة تغذيها صحافة الخبر . أما صحافة الرأى فإنها تعجز عن الوفاء بمتطلبات الناس ولا تعطيهم جديداً . ولعل السبب فى نجاح صحيفة الأخبار وتفوقها على غيرها أنها صحيفة الخبر ، وحتى إذا تعرضت للفكر فإنها تقدم الفكر بأسلوب صحفى متصل بالأحداث اليومية . . وإن كنت أفضل أن تجمع الصحيفة بين الخبر الصادق المشوق ، وبين الفكر الأصيل .. أما ما يحدث فى الصحف فأمر يحتاج لوقفة ولو قصيرة .. المعروف أن الصحف تخضع للجهاز المسيطر على الصحيفة وهذا الجهاز يخضع بشكل أو بآخر للتوجيه الحكومى .. فمثلا الذين يكتبون المقالات الرئيسية فى الصحف هم من الصحفيين الذين يملكون السلطة فى الصحف .. هم وحدهم يكتبون والآخرون مكتوب عليهم القراءة .. ونادراً ما تسمح هذه الصحف بتسجيل آراء المواطنين من خلال آراء الجهاز المالك لناصية الصحيفة ، والمتنفس الوحيد للمواطنين قد يجئ عن طريق الأحاديث الصحفية أو التحقيقات التى غالباً ما يكتبها الصحفيون بأنفسهم ، ويضعون فيها فكرهم .. وقد تكون هذه التحقيقات موجهة من الحكومة أو من جهاز آخر أو تنظيم سرى .. ولقد دفع الحزب الشيوعى فى مصر فى يوم ما بعض عناصره لعمل تحقيقات مثيرة فى صفوف العمال ، ولم يكونوا يستهدفون من وراء هذه التحقيقات إلا إثارة هذه العناصر وتجميعها وتكتيلها ليوم كانوا

يستعدون فيه لمفاصلة جمال عبد الناصر نفسه . ولقد سمعنا من الشيوعيين الذين رافقونا فى السجن قولهم أنهم إنما يتعاونون مع جمال عبد الناصر كمرحلة للوصول إلى الحكم ، كانت خطتهم تستهدف تصفية خصومهم بيد جمال عبد الناصر ، ثم القضاء عليه بعد ذلك . وأظن أن جمال لم يكن يجهل هذه الحقيقة إلا أنه كان حائراً فيما يفعل وخاصة أن العناصر الشيوعية كانت تستند إلى قوة روسيا وتأييدها السياسى والعسكرى لمصر، ومما أذكره أن خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى رفض زيارة مصر لأنها دولة تسجن الشيوعيين ، ولقد أثر ضغطه هذا على عبد الناصر ، ولكنه بعناده المعروف لم يفرج عن الشيوعيين مباشرة وتحايل على الأمر بأن أصدر دستوراً مؤقتاً — وما أكثر الدساتير التى صدرت فى عهده — هذا الدستور انتهى بالإفراج عن الشيوعيين فقط ، وأقفل الباب فى وجه الإخوان .. ونفس هذا الموقف تجدد وبشكل مباشر قبل حرب ١٩٦٧ مباشرة ، فلقد أصدر شمس بدران أوامره بالإفراج عن جميع المعتقلين الشيوعيين — وكان عددهم لا يتجاوز ١٥٠ معتقلا — وذلك بمجرد هبوطه من الطائرة التى عادت به من موسكو ، وهذا يعنى أن موسكو اشترطت الإفراج عن الشيوعيين فى مقابل مساعدتها لمصر .. هذه الأمثلة أسوقها تدليلا على أن العناصر الشيوعية كانت مرتبطة بسياسة موسكو ، وكانت موسكو تعتبر الشيوعيين فى مصر وفى غيرها بمثابة عملاء لها ، وفى مقابل هذا كان الشيوعيون يشعرون بالولاء لروسيا أكثر من الولاء للدولة التى ينتمون إليها . . ولقد أفقدت هذه التبعية الحركة ، الشيوعية فعاليتها وقدرتها على الحركة — يضاف إلى هذا أن الحركة

كانت ولا تزال تناصب الدين الإسلامى العداوة متهمة إياه بأنه يناهض الحركة التقدمية الثورية ، ومع أننى راغب عن الاستطراد فى هذا الموضوع إلا أن الكلمة العاجلة التى أحرص على تسجيلها .. هى أن عداء الحركة الشيوعية للإسلام كان عداء جهلاء يسيرهم عملاء تضللهم الصهيونية والاستعمار الغربى لأن الدين الإسلامى يرفض كل ألوان الظلم والتسلط سواء كان التسلط مبنياً على طغيان رأس المال أو طغيان السلطة الحاكمة .. وأخذاً بهذا المبدأ الأصيل يمكننا أن نرفض وجود الطبقية التى تستند إلى قوة رأس المال أو قوة الحكومة ، ونتيجة لإلغاء الطبقية لن يجد له المال مكاناً إلا فى يد الشعب الذى يصرفه على نفسه آخذاً بعدالة التوزيع .. فالإسلام يرفض دكتاتورية رأس المال (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) ويرفض دكتاتورية السلطة أو الحكومة — (وأمرهم شورى بينهم ..) .

هذه القواعد السهلة البسيطة يمكن صياغتها على أى وجه ، وفى أى قالب ، فإذا تحققت الصياغة فالأمر الذى لا أشك فيه هو أن الشيوعية بدكتاتوريتها ، والرأسمالية بجبروتها سوف يهربان من أرضنا بل ومن العالم أجمع .

إن هذا الاستطراد عن الحركة الشيوعية اضطرنى إليه الحديث

عن صحافة الخبر وصحافة الرأى .. ومع أننى لم أقصد من وراء هذا الحديث تقديم دراسة عن الصحافة إلا أننى أرجو أن أتمكن من خلال هذا الكتاب من إيداع ما يضطرب فى نفسى من فكر ورأى ومنهج .

يبقى سؤال يحتاج لجواب صريح — فماذا كان من أمر الصحيفة وأمرى ؟ لقد آثرت أن أعيش فى أجهزة الصحافة لأتعلم فن المهنة وأصولها ، فعملت فى قسم الأخبار وقسم التحقيقات فترة لا تقل عن خمسة أعوام إلا أننى لا أستطيع أن أقول أننى تفوقت فى عملى ، ولكننى أقول أننى بذلت جهداً طيباً ، وسجلت بعض الانتصارات الصحفية ، إلا أن الفائدة الكبيرة التى كسبتها ، هى أننى عشت الصحيفة وتعايشت مع زملائى وزميلاتى ، وأثرت فيهم وتأثرت بهم ، فلقد حرصت على أن أنصح لهم وبأسلوب مقبول ، ووجدت استجابة من بعضهم ، ولكنى كنت أشعر أن دعاية عبد الناصر المضادة كانت تلاحقنى وتلاحق الجميع ، كان الناس ومنهم الصحفيون يعيشون فترة من الخوف والانزعاج من اسم الإخوان ومن أشخاص الإخوان ويتجنبون كل ما يتصل بهم .

ولقد أثر هذا الخوف فى نفسى وفى غيرى وحال بينى وبين أداء رسالتى على الوجه المطلوب .. فقيدت قلمى طواعية قبل أن تقيده الحكومة قسراً ، وربطت على لسانى مخافة أن تقطعه الحكومة ..

وليسمح لى القارئ ان أضع تصورى عن الصحف بصفة عامة .

(أ) الصحف الموجهة من الحكومات أو الأجهزة الحكومية تلتزم بسياسة الحكومة ورئيسها ويتحول العاملون بهذه الصحف إلى موظفين شبه حكوميين يلتزمون بمسلك معين الأصل فيه السمع والطاعة ، ومهما حاول هؤلاء الموظفون التحرر من سلطان وظيفتهم فإن محاولتهم لن تتعدى الإطار المرسوم لهم . . ويكفى مثلا لما أقول إن جمال عبدالناصر ظل بكل أخطائه محصناً من النقد طوال حياته ، بل إن هذه الحماية امتدت إلى وزرائه والعاملين معه . .

(ب) الصحف الحرة .. !! الواقع أن عبارة صحف حرة مبالغ فيها ، لأن جميع الصحف التى تصدر فى الدول ذات الاقتصاد الحر تخضع للمعلن وللمعونات ، وسواء كان المعلن حكومة أو قطاعاً خاصاً ، فإنه يعتبر مصدر التوجيه والإلهام لهذه الصحف .. وتكون إراداته هى المسير للصحيفة ، ويلتزم العاملون بهذه الصحف رضوا أم كرهوا بإرادة رب العمل الذى لا يملك إلا تراضى المعلنين والممولين . ولقد لمست هذه الحقيقة فى صحف الدول الرأسمالية فهى لحد كبير تخضع لسياسة المعلن ، ومزاج صاحب الصحيفة .. وأما ما يقال عن حريتها فإنه أمر مشكوك فيه ومع هذا كله فإنها لاتستطيع سواء عدلا أو ظلماً أن تنقد وزيراً أو مسئولا .

لكن ما هي الصورة المثلى لكي تؤدى الصحف رسالتها .. إنني ناقشت هذا الأمر كثيراً مع نفسي ومع الغير ، ولا أقول أنني انتهيت إلى رأى سليم ومتكامل . ولكني أقترح أن تحرر الصحف من سلطان الحكومة ومن سلطان أرباب الإعلانات : ولن يتحقق هذا إلا إذا قامت مؤسسات صحفية تكون على هيئة شركات مساهمة شعبية شريطة ألا تمكن أصحاب رؤوس الأموال من الهيمنة عليها .. أما دور الحكومة فلا ينبغي أن يتعدى نطاق تقديم معونة تتدرج حسب قدرة الصحف على الانتشار ، كذلك عليها أن تلتزم بتزويد الصحف بالإعلانات أخذاً بنفس هذا الأسلوب . . يتبقى بعد ذلك دور اختيار الكتاب والمحررين ، لأن كتاب الصحف لا يقلون في دورهم الإعلامي عن خطباء المساجد والمدرسين . . ولما كانت رسالتهم بهذا القدر فإنه ينبغي إحسان اختيارهم . ووضع معايير أخلاقية ودينية وعلمية وثقافية إلى جانب القدرة الفنية الصحفية .. إن الأقلام الصحفية تلعب دوراً خطيراً في توجيه المجتمع ومن حق المجتمع أن يضع الضمانات الكافية لحماية نفسه من المنحرفين .. والذي يهمني أن أقوله في ختام حديثي عن الصحافة : أن أذكر نفسي والصحفيين والمتكلمين أن يتذكروا قول الله تعالى : « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .. لقد استيقظت هذه الآية أخيراً في نفسي ، وكأنني لم أقرأها أو أفهمها من قبل تماماً ، أو لعلي كنت لا أتذكرها إلا حينما أتحدث في جمهور قليل

من الناس، إما أن أخطب فى جماهير أو أكتب فى صحيفة أو كتاب فإن هذا المعنى كان يبدو بعيداً عنى .. وغدوت الآن أدرك خطورة ومسئولية الكلمة أمام الله والناس ، الكلمة المنطوقة والمقروءة والمسموعة. من أجل هذا أجدنى حريصاً كل الحرص على أن ألزم نفسى فى هذا الكتيب أن أقول كلمة الحق ما مكننى ربى ..

كل هذا الحديث عن الصحافة دعانى إليه ما أهم بكتابته عن الأحداث التى وقعت عام ١٩٦٥ وما تلاها .. وليسمح لى القارئ أن أدنو به من «باب السجن» ولكن قبل أن يخطو أعتابه ليشاهد الهول الأكبر ، أرجو أن أذكره أن تغييراً ما قد تم فى سياسة الحكومة الخارجية ، هذا التغيير أو الانحراف اتجه إلى الشرق بعنف . والتزم بالخط السياسى الروسى ولحد ما بالخط الفكرى . . ونتج عن هذا مناصبة من يسمونهم باليمينين أشد العداء .. وكان طبيعياً أن يوضع الإخوان على رأس القائمة .. وقد كان .. وتأهب جمال عبد الناصر لخوض معركة التصفية ضد الإخوان .. ولأنى أكتب كلمة للتاريخ ألزمت نفسى فيها بالأمانة والصدق ، أقول إنه قبل وقوع أحداث سنة ١٩٦٥ بحوالى خمسة أشهر همس فى أذنى صديق كبير ملتصق بالثورة أيما التصاق بل هو منها وعليها ، قال لى ما معناه أن ضربة ما ستوجه إلى الإخوان وأنها ستكون ضربة عنيفة ، وبمجرد سماعى لهذا الخبر بدأت أتحايل للخروج من مصر فراراً بدينى وخلقى . ولكن أجهزة الأمن رفضت السماح لى بالسفر ، مع أنها كانت قد أذنت لى

من قبل كما سبق أن ذكرت ... ثم بدأت المحنة الجبارة التى تزعمها
شمس بدران وآخرون وأحلافهما .. بدأت بمقدمات وعلى خطوات
كانت أولاها اعتقال بعض الإخوان وتعذيبهم ثم إطلاق سراحهم ،
فأوجست النفوس خوفاً ، واضطربت البيوت ، وانزعج الأقارب
والأصحاب وتخلخلت العلاقات الاجتماعية ، وبدأ كل واحد منا
يسترجع عذاب الماضى وآلامه ، ويتكهن بما سيجرى له . . ولكن
الأمر الذى كنا جميعاً نستبعده هو احتمال تعرضنا لمحنة مثل محنة ١٩٥٤
ذلك لأننا كنا نشعر أن ظروف وملابسات تلك المحنة غير قائمة ..
فالجماعة غير موجودة ، وقيادتها لا يزال معظمها بالسجن ، وجهازها
السرى اختفى من الوجود .. وعلى الجانب الآخر كنا نتخيل أن جمال
عبد الناصر قد غير سياسته وخالف منهجه ، ولم يكتف بمخالفة سياسته
بل إنه تطرف فى عدائه للتكتلات الغربية ، ونجح إلى حد كبير فى إسقاط
الأحلاف الاستعمارية كحلف بغداد وغيره .. ثم أنه أفرج عن عدد
كبير من المسجونين .. هذا كله جعلنا نستبعد محنة كمحنة ١٩٥٤ ..
ولكن الأمر كان على عكس كل تصوراتنا فقد كانت ضربة
١٩٦٥ تعنو أمامها ضربات يناير وأغسطس ١٩٥٤ فأولا كانت
تفتقد مبرراتها وهذا ما أعطاها مرارة خاصة فى أنفسنا ثم إنها كانت
تستمد جبروتها من موقف سياسى خاص وهو اتجاه مصر نحو روسيا
وكانت وطأتها عنيفة لأنها عن اتجاه عقائدى معروف بعداوته الضارية
للإسلام عامة وللإخوان خاصة ، كان الشيوعيون يتحفزون لهذه
المعركة ويعدون لها عدتها .. ولقد كشفوا عن نواياهم يوم أن ذهبوا

لاستقبال جمال عبد الناصر فى المطار وهو عائد من موسكو وكان هتافهم « قتل قتل يا جمال .. لا رجعية ولا إخوان » . ولعل إعلان جمال عبد الناصر فى موسكو يوم ٤ سبتمبر ١٩٦٥ عن عزمه على ضرب الإخوان ، أعطاهم فرصة كبيرة للكشف عن عداوتهم الضارية وتشوقهم للانتقام من أخطر أعدائهم .

عشية الثامن والعشرين من شهر أغسطس اقتحم بيتى خمسة من رجال المباحث بقيادة ضابط من ضباطهم ، وفى دقائق نبشوا البيت : كانوا فى عجلة من أمرهم ، وكانوا يؤدون عملهم بروتينية ، لأنهم كانوا على يقين أننى لا أخفى فى بيتى شيئاً من المحظورات ، ثم ساقونى أمامهم ، وبناتى الأربع يقفن فى ذهول ، ولا أذكر من قالت منهن يومها : أنتم سرقتم بابا .. وقد صدقت فى تعبيرها ، ثم حشرت فى عربة سوداء مضت بى إلى مباحث الدقى ومنها نقلتنى إلى القلعة ، وهناك دفع بى إلى زنزانة ضيقة مختنقة لا يكاد ينفذ إليها نور أو هواء .. ردتنى هذه الزنزانة إلى أحد عشر عاماً خلت .. فى مثل ذلك اليوم أى فى ليلة ٢٨ أغسطس عام ١٩٥٤ اعتقلت ودخلت نفس الزنزانة وبت فيها ليلة واحدة .

إن القلعة تعتبر رمز القسوة والظلم والجبروت ، إنها قطعة من الصخر بنيت فى قلب جبل صخرى ، ولها عيون حادة سوداء ، تقتحم العاصمة الرابضة أمامها تلقى فى قلوب الآمنين الرعب والخوف .. إنها نفس المكان الذى غدر فيه محمد على بخصومه من المماليك ، وهى

نفس السجن الذى أرهب به أبناؤه وذريته من بعده الشعب المصرى المسالم ، وأخيراً استعملها عبد الناصر باسم الشعب ضد من أطلق عليهم أعداء الشعب ،اتخذها حماية له ضد كل من يفكر فى معارضته بالكلمة أو الورقة أو السلاح .. إلا أنه أدخل فيها كل جديد مبتكر أو مستورد من صنوف العذاب المرير .. القلعة .. !! بت ليلة فى تلك الزنزانة .. لا أعرف شيئاً عن غدى أو عن مصيرى ، وحاولت جهدى فى أول الليل أن أسترجع حركاتى ، وأحصى تصرفاتى خلال الفترة التى أعقبت الإفراج عنى عام ١٩٦١ ، بل إننى استرجعت الصورة التى سبقت الإفراج عنى ، وجرى أمامى شريط سريع عن الوسائل التى انتهجتها حتى تم الإفراج عنى ، لقد كتبت العديد من الرسائل أؤيد فيها الحكومة وأؤيد فيها مواقفها ، وكانت بعض هذه الرسائل صادقة ، بل وصادرة عن انفعال حقيقى ، وكان بعضها يتسم بالمجاملة والرغبة فى التقرب إلى الحكومة لتفرج عنى ، لقد انفعلت بوحدة سوريا ومصر أيما انفعال ، وانفعلت بموقف جمال عبد الناصر فى هيئة الأمم يوم أن سعى للصلح بين خروشوف وإيزنهاور حتى خيل إلى وقتها أن الرجل قفز بمصر إلى مصاف الدولة الكبرى ، وأعطاها مكانة عالمية بعد أن كانت شبه مستعمرة تمثل « درة التاج البريطانى » كما كان الإنجليز يطلقون عليها .. هذه المواقف وغيرها أثرت فى نفسى أيما تأثير ، وشدتنى إلى وطنية لها عمقها فى نفسى ، ودعتنى لأن أغفر لجمال عبد الناصر الكثير من أخطائه .

كل هذه الصور تدافعت إلى رأسى فى تلك الليلة ثم لحقت بها

صور أخرى .. بيتى الحبيب ، أسرتى الطيبة .. أولادى الصغار زوجتى المعذبة ، لقد اختطفت من بين أيديهم بلا مقدمات . . ولم أكن قد تركت لهم شيئاً يذكر ، فأشفقت عليهم من الجوع والحرمان .. ولكن طمأنينة ما تنزلت على قلبى ، وسكينة لا أفهم لها سبباً سرت فى نفسى فأسلمت الأمر لله .. وفجأة عرض أمامى شريط مرعب عن التعذيب الذى قد أتعرض له فارتعدت خوفاً لأن التعذيب فضلا عن أنه إيلام جسدى رهيب فهو تحطيم للإنسانية وسخرية بكل القيم وإذلال وامتهان للكرامة وتهاون بكل شىء .

فى اليوم التالى لاعتقالى ساقونى مع مجموعة من زملائى إلى مكان ما تبين لنا أنه سجن أبو زعبل الرهيب .. وكنا أول من دخل هذا السجن بعد أن جدد بناؤه القديم الذى سبق أن هدمته القنابل البريطانية سنة ١٩٥٦ . . كان استقبالنا فى السجن عادياً لا ضرب ولا شتم ولا حمزة ولا كلاب فاستبشرنا خيراً .. لبثنا على هذا الحال عدة أيام لا أذكرها .. ثم تغير الأمر فجأة ، وانقلب السجن إلى قطعة من العذاب .. سياط وعصى ، وصراخ ، شىء فظيع .. فظيع حقاً .. ومرت أمامى مشاهد لا أستطيع أن أتخيلها أو أتصورها ، وكلما عرضت لى فزعتنى وأقضت مضجعى وأثارت آلاماً لا أستطيع تحملها . . إلى هذا اليوم إذا سقطت بالقرب منى قطعة من الحديد انتفض جسدى خوفاً ، واضطربت أعصابى . . واسترجعت كل آلامى . . والسبب فى هذا أن العذاب كان يبدأ فى تمام الساعة العاشرة صباحاً بإلقاء قضيب من الحديد على الأرض ثم يتصل العذاب إلى فجر اليوم التالى . . هذا القضيب كان يعلق عليه

المعتقلون ، مثل الذبائح تماماً ، ثم يوضع طرفاه على كرسيين ويظل المعتقل على هذه الصورة أياماً يضرب بالعصى والكرابيج على جسده ، وبكل قسوة يمكن أن يتصورها العقل . . نسيت أن أقول أنه قبل أن يجرى عليه العذاب يعرى من ثيابه تماماً كيوم ولدته أمه وتعصب عيناه بمنديل ، حتى لايعرف شيئاً عمن يضربه . . صورة بشعة مرعبة . . شاهدتها عشرات المرات .

أما المشهد الآخر فهو أشد روعاً من الأول ، وفى ظنى أن أى مخرج سينمائى يعجز عن تخيله ، وليس بمقدورى الآن أن أنقل صورته للقارىء مهما أوتيت من قدرة على البيان أو الكتابة . . هذا المشهد كان كالآتى : يؤمر المعتقل بالتجرد من ثيابه بعد أن تعصب عيناه ، ثم يؤمر بتسلق قضبان حديدية إلى مسافة قد تصل إلى ثمانية أمتار ،ويكلف بالصعود والنزول فوق هذه القضبان فى الوقت الذى تنهال عليه السياط والعصى من كل جانب ، وحتى إذا تعب الجلادون قاموا بربط المعتقل برباط غليظ إلى القضبان الحديدية ، ويظل المعتقل معلقاً — وهو عريان تماماً — بين السماء والأرض طوال الليل والنهار ، والدماء تقطر من جسده المنهك . . تاركة خطوطاً حمراء وسوداء تثير الرعب والفزع . . مشهد لايمكن أن يتخيله مخرجو الأفلام السينمائية ، وقد بلغت السفاهة ببعض المعذبين أنهم كانوا يتسلون بضحاياهم بأن يغرسوا عصيهم فى دبر المعذبين أو يعبثوا بقبلهم وهم يضحكون . .

كم يوماً يستطيع أن يتحملها إنسان تحت هذا العذاب . . ! !

إنسان معلق بين السماء والأرض معصوب العينين ، مشدود إلى قضيب من حديد يضرب ليل نهار ، ولا يكاد يطعم شيئاً أو يشرب إلا القليل من الماء . . ! ! كم يوماً بل كم ساعة يمكن أن يتحملها الإنسان . . ! ! هذه الصوره من العذاب اتصلت أكثر من شهر بالنسبة لبعض الإخوان أذكر منهم الدكتور أحمد الملط ، ومحمد الغزالى الجبيلى شقيق زينب الغزالى ، وأنور عزب . . .

إن المسيحيين يقيمون الدنيا ويقعدونها منذ ألفى عام توجعاً على زعمهم بصلب المسيح - كما يدعون - فكيف بهم وبغيرهم لو شاهدوا عملية الصلب والتعذيب لجماعات من الناس دون ما ذنب أو جريرة اللهم إلا وهماً بأن حكم جمال عبد الناصر يحف به خطر . . .

هذا المشهد لا أستطيع تصويره ، ولا يستطيع غيرى تصويره مهما أوتى من براعة فى التعبير . . . ومن أجل هذا أوثر الاكتفاء بما ذكرت .

ولأنتقل إلى مشهد آخر . . نوديت ذات يوم وأمرت بأن أعصب عينى حتى لا أتعرف على الطريق التى سأسلكها ، أو على زبانية العذاب الذين سيستمتعون بتعذيبى ثم جرونى مع مجموعة من زملائى إلى مكان خارج عنبر السجن . . كنت أرتعد من الخوف وكان الصراخ المتصاعد من حولى يضاعف من رعبى ومن خوفى .

أدخلت فى السلخانة وأمرت تحت وطأة الكرابيج والعصى بالتجرد من ثيابى ، ثم الرقود على الأرض ورفع قدمى إلى أعلى . . وبدأت

العصى تنهال على جسدى بكل فظاعة وقسوة ، وأنا أصرخ وأستجير ولكن لا مغيث ، وكانوا أثناء الضرب يسألوننى عن اسمى ووظيفتى ويتسلون بأسئلة لا معنى ولا مغزى لها ، ومن أسئلتهم التى عجبت لها سؤالهم إياى عن مدى صلتى بكمال الدين حسين . . ثم تطرقوا لأسئلة أخرى عن فترة ما قبل المعتقل . . فلما قلت لهم أننى كنت أصطاف فى معسكر حمصة . . جن جنونهم وتضاعف غضبهم ، وتسابقوا فى ضربى بأحذيتهم وكرابيجهم ، وهم يسألوننى عن أخبار هذا المعسكر وماذا كان يجرى فيه ، وتحت وطأة العذاب طلبوا منى أن أعترف على المدربين ، وعبثاً حاولت إفهامهم عن حقيقة المعسكر وأنه معسكر حكومى تشرف عليه إدارة رعاية الشباب ،فاضطررت لذكر أسماء أشخاص كانوا معى فى المعسكر ، ولكننى حرصت على أن أذكر أسماء من اعتقلوا معى تجنباً لإيذاء آخرين ، ثم أكدت لهم أننا كنا نصطاف على الشاطىء ولم نكن نتدرب .

ثم انتقلوا لسؤالى عن موضوع غريب ما كنت أعتقد أنه يشكل اتهاماً خطيراً ضد نظام الحكم ، الموضوع يتعلق بقضية كنت قد وكلت فيها كمحام عن أحد الإخوان الذين سبق الحكم عليهم من محكمة الشعب ، والقضية تتعلق بطبيعة هذه الأحكام ، وقد وفقنى الله لكسب القضية إلا أن جهاز المباحث غضب من تصرفى وبيت انتقاماً لكرامته ، وكرامة أحكام محكمة الشعب المضحكة ! المهم أنهم أوجعونى ضرباً بسبب هذه القضية . . . اتصل تعذيبى خمس ساعات ، دون توقف ، وخلصت من بين أيديهم وأنا مزقة بشرية ، بها بقية

من حياة تتمثل فى جسد يتحرك بلا ضابط ، ولولا ملاحقتهم لى بالعصى والكرابيج والشتائم لما استطعت السير ، بل والركض أمامهم حتى أدركت زنزانتى . . فلما رفعت المنديل الذى كنت أعصبه فوق عينى لمحت سحابة الحزن والألم والرعب ترتسم على الوجوه الصفراء الخائفة التى كانت تلتصق بالجدران . . كان كل واحد منهم ينتظر دوره فى السلخانة ، ويتخيل نفسه وهو يجر معصوب العينين إلى حيث يلقى نصيبه من العذاب . . ولما كان المعذبون يؤمرون بعدم ذكر أى سبب لتعذيبهم ، فقد كان إخواننا يتوهمون أن العذاب لن يمسهم لأنهم لم يقترفوا شيئاً ! ! ولكن تبين لنا فيما بعد أن العذاب كان يمارس من قبيل الاستمتاع والتلذذ ليس إلا .. فمثلا عذبت مجموعة من الشباب لأنهم كانوا يتناولون طعاماً معا فى نزهة خلوية ، وتعرض عدد كبير من أبناء شبين الكوم لأشد العذاب ، لأنهم كانوا أعضاء فى فرقة لكرة القدم ، وقد ضبط كشف بأسمائهم عند مدربهم ، وكان الكشف يحمل رموزا لأسماء اللاعبين .. فظن رجال المباحث أن هذه الرموز تعنى أسماء حركية لجهاز سرى ، فعذب مدرب الفريق عذاباً رهيباً . . أعجزه عن كشف حقيقة الأمر إلا فى اليوم التالى .

نسيت أن أقول أنهم أمرونى أثناء التعذيب وأنا مغمض العينين بالتوقيع على محضر قالوا أنه محضر تحقيق ، فتحايلت على توقيعه بشكل مثير للغموض فضربونى لإعادة التوقيع لأتخلص من العذاب . . وقعت على ورق لا أعرف عنها شيئاً إلى يومى هذا . . وبعد ثلاثة أيام

استدعيت مرة ثانية ، وبعد أن عصبت عيني ، ساقوني في طابور طويل كلهم معصوبو العيون ، ثم دفعوا بي إلى غرفة التعذيب ، حيث تركت فترة أسمع صراخا وعويلا ووقع الكرابيج والعصى ، وعبارات الاستعطاف والاسترحام التي تمزق القلب . إلا أنني لم ألق منهم عذاباً في ذلك اليوم ، مكتفين بترويعي لأعترف فأقسمت بالأيمان المغلظة أنني لا أعرف شيئاً عن الأجهزة ، وأنني بعيد كل البعد عن الإخوان ، ثم استحلفوني بالطلاق فحلفت . . وفي حركة درامية شد أحد الضباط العصابة من فوق عيني ، ثم وقف أمام ضابط آخر وقال انت عارف ده مين ؟ دا فلان اللي كان بخطب ويقول كذا وكذا وأخذ يمثلني — وأنا أخطب . . فلاطفني الضابط الكبير فبكيت ولا أدري ما سبب بكائي . . ثم تشفعت بالضابط الكبير ليكفوا عن عذابي ، قد تسألني ولم الاستعطاف والتشفع ، أقول بكل صراحة ، بل وأوصي وأنصح كل من يسقط في يد الحكم العسكري أن يحاول ما أمكنه الإفلات من قبضته ، لأن الحكم العسكري لا عقل ولا منطق له ، ولا قانون يحكمه شأنه شأن الوحش المفترس ، فمن العبث مواجهة وحش مفترس والأفضل الإفلات منه . . هذا رأيي وما زلت أنادي به . . ولقد أمدني حادث طرة الرهيب بما يحملني على إبداء هذا الرأي ، ولكم وددت لو تمكنا من تجنب أنفسنا ما وقع لنا في حادث طرة . ولكن قضاء الله نفذ ولا راد لقضائه .

ولما كنت حريصاً على كشف كل ما كان يعتمل في صدري ، فإنني أعترف بأنني كنت من المشجعين على تأييد الحكومة على أثر

اعتقالنا ، ولم يكن هذا التأييد عن اعتقاد منى بسلامة موقف الحكومة .. ولكننى كنت خائفاً من تكرار حادث طرة مرة ثانية . . كما كنت أخشى أن ينقسم الإخوان على أنفسهم إلى مؤيدين ومعارضين ، ويقع بينهم ما وقع لإخوانهم فى الواحات والسجون الأخرى – وكان هذا كله بفعل الحكومة – ، كل هذا حملنى على انتهاج سياسة ملاينة الحكومة حتى يخف عذابها عنا ، لقد وصل الأمر بنا إلى درجة لاتسمح لنا بغير هذا الموقف . . لأن معارضة الحكومة تعنى إبادتنا . . والسكوت عن تأييدها يضاعف من عذابنا . . فماذا كان ينبغى علينا فعله غير الذى فعلناه ! !

انتهت جولتى الثانية فى السلخانة بسلام إلا أن العذاب لم يتوقف بالنسبة للجميع إلا بعد ثلاثة أشهر من اعتقالنا . . ومما أذكره وهو قليل جداً مما عرض لنا ، أن إدارة السجن قررت ذات يوم ضرب جميع المعتقلين ، فأصدر قائد السجن أمراً بصرف خمسين عصا لكل معتقل ، احتفاء بذكرى حادث المنشية الذى تعرض فيه عبد الناصر للقتل ، ولقد نفذت فينا العقوبة بصورة مخزية ، فقد أمرنا جميعاً بربط عصابات على أعيننا ثم الحبو على أرجلنا وأيدينا شأننا شأن القرود والكلاب ، وأمرنا بالزحف هبوطاً على درجات السلم إلى ساحة السجن ثم طرحنا على ظهورنا وأمرنا برفع أرجلنا لنتلقى تحية الذكرى . . كان صراخ المئات من الشيوخ والشباب بل والصبية وهم يضربون رهيباً مفزعاً ، وكان منظر الجلادين الكبار وهم يتفرجون علينا مخزياً مخجلا . . إننى مذهول مذهول حقاً كيف كان هؤلاء المجرمون

يتحملون مشهد هذا العـذاب ، وكيف كانوا يفكرون ، وأين قلوبهم . . . ؟ ؛ إننى أشك أن يكون لهم قلوب أو آذان أو أى شىء يتصل بالإنسانية . . لا شك أنهم نوع خاص من الناس إذا سمحنا لأنفسنا أن نطلق عليهم تعبير الناس . . عقب هذا الحادث بيومين نادانى واحد من الذين كانوا يشرفون على التعذيب ، وحاول جهده أن يبرر سبب تعذيبه للمعتقلين . . . . قال لى وهو يتجرع كأساً من الشاى . . لو اعترف المعتقلون بجرائمهم لما أصابهم ما ترى . . وأشار إلى المصلوبين على قضبان الحديد . ثم أضاف قائلا أن المجرم الإنجليزى إذا وقع فى يد العدالة بادر بالاعتراف بجريمته ، أما المجرمون عندنا فينكرون كل شىء وهذا ما يضطرنا لضربهم .

لقد مرت على المئات من مشاهد الإيذاء والعذاب ، منها النفسى ومنها الجسدى ، ولا بأس من ذكر بعض الأمثلة ، مثلا أمر أحد الأبناء بضرب أبيه بالعصا على رجليه ، فلما أجفل الابن عن ضرب أبيه ضربوه بشدة فكان الأب يرجو ابنه ليشتد عليه بالضرب . . وقال لى معتقل أن واحداً من رجال المباحث وضع حجراً على صدره ثم أمره أن يقول أحد . أحد . كما كان يقول بلال وهو يعذب ، كان يتهكم من بلال بن رباح الصحابى الجليل . . ! ! ومنها أنهم كانوا يأمرون المعتقلين الجدد بالتجرد من ثيابهم ثم يستمتعون باستعراضهم ، وبعد أن يتم استعراضهم يتركونهم عرايا لساعات ثم يسمحون لهم بارتداء الثياب . . . لقد سمعت عشرات القصص ولكنى وللأسف لا أكاد

أذكر منها إلا القليل . . ولحرصى الشديد على أمانة الكلمة فإننى لم ولن أذكر إلا ما استيقنت منه ، وأننى أعتقد أن بعض الإخوة دونوا الكثير مما جرى لهم ولعله يتيسر لهم تسجيله ونشره فيما بعد .

ومن المضايقات العديدة فى المعتقل ، أنهم كانوا يحشروننا بالمئات فى حجرات عفنة فى معتقل طرة حتى أنه كان يستعصى علينا النوم . ولقد بلغ الأمر ببعض زملائنا أنهم كانوا يتقاسمون الليل ويتناوبونه ، فينام البعض ويظل الباقون جالسين القرفصاء . . وكان الطعام قليلا جداً وقذراً للغاية ، وكان الماء (فى بلد النيل) لا يكاد يوفى بالحاجات الضرورية حتى أننا كنا نضطر للتيمم لأداء الصلاة ، ولقد حرصت الحكومة على قطع علاقتنا بالعالم الخارجى ، لا صحافة ولا إذاعة ولا رسائل . . لقد لبثنا ستة أشهر دون أن يعلم أهلنا عنا شيئاً ، ثم سمح لنا بكتابة توكيلات لذوينا ليتسلموا رواتبنا ، مع تحذير من كتابة أية عبارة يشم منها التحية أو السلام للأهل . . ولم نسمع صوت الإذاعة إلا بعد عام من اعتقالنا ، وكان ذلك بعد إعدام المرحوم سيد قطب ورفاقه .

بعد ستة أشهر قضيتها فى معتقل أبى زعبل حولت إلى معتقل طرة للعلاج وكان معتقل طرة يعتبر جنة بالنسبة لمعتقلى الحربى وأبو زعبل ، على الرغم من متاعب الأكل والشرب والنظافة والانقطاع عن الأهل ، والفتن الداخلية ، والتلصص ، كل هذه المتاعب كانت أهون بكثير من غيرها . . وكان المعتقلون فى طرة يتوهمون أنه سوف يفرج عنهم قبل إخوانهم المحتجزين فى المعتقلات الأخرى .

وفى معتقل طرة وغيره ابتلينا بداء رهيب مرض به قلة من إخواننا فتنتهم الحكومة واضطرتهم ليتجسسوا على إخوانهم تحت ضغط التهديد أو الإغراء . . وكان معظم هؤلاء من بقايا المسجونين الذين ابتلوا بممارسة هذا العمل سواء عن رغبة فى الإفراج أو أملا فى التقرب من الحكومة ، أو حقداً على الجماعة أو رهبة من الحكومة .

كل هذه العوامل خلقت مجموعة من عيون المباحث فى صفوف المسجونين وانتقلت هذه المجموعة لتمارس نشاطها بين المعتقلين . . يضاف إليهم مجموعة من المعتقلين نهجوا نفس النهج تحدوهم نفس الآمال ، ولعلهم تأثروا من زملائهم المسجونين .

الواقع أن هذا البلاء خلق فينا جواً من الرعب ، وحول البعض منا إلى مجموعة من المنافقين تظهر غير ما تبطن . . كنا نضطر خوفاً من هؤلاء إلى كيل المديح للحكومة والتبرؤ الدائم من الإخوان . . ولقد وصل الأمر بأحد المعتقلين أنه تطوع بالتجسس لحساب طبيب كان يعمل فى مستشفى السجن ، وكان هذا الطبيب – كما أعتقد و مما صرح لنا به – من عملاء المباحث العامة المخلصين . . . وصل الأمر بهذا المعتقل أنه كان يبلغ الطبيب بأخبار المرضى فى المستشفى تفصيلا . . حتى أنه كان يستثير حفيظة الطبيب على الذين يؤمون الناس فى الصلاة . . فكان الطبيب يخرجهم من المستشفى انتقاماً منهم . . ومن طريف ما أذكره أن بعض المعتقلين حرصا منهم على أداء الصلاة فى جماعة كانوا ينتهزون فرصة صلاة أحدهم فيأتمون به دون أن يدرى – فكنت

أقول لهم أرجو أن تضيفوا إلى نية الصلاة وتقولوا نوينا إخراج الإمام من المستشفى . . ! ! وللعلم حرمت علينا صلاة الجمعة طوال فترة إقامتنا بالمعتقل .

إن قضية التجسس لحساب الحكومات من القضايا المألوفة فى كل دول العالم ، ولقد كتبت فيه آلاف الكتب ، ونقل لنا التاريخ مآسى مؤلمة تسبب فيها الوشاة ، وأغلبهم ، إن لم يكن كلهم ، من الكذابين .. وأنا هنا لا أحب أن أتعرض للتجسس ضد عدو الدولة فهى قضية قد تتسم بالوطنية ، بل هى ضرورة من الضرورات فى زمن السلم والحرب على سواء ، وذلك لمعرفة أسرار الخصوم والأعداء .. ولكن القضية التى تثير اهتمامى هى التجسس لحساب الحكومة ضد خصومها من المواطنين . . . وخاصة السياسيين منهم .. لأنه قد يكون من المفيد التجسس كوسيلة للكشف عن المجرمين العاديين حماية للمواطنين من أذاهم .

ويهمنى فى هذا المقام أن أسجل وجهة نظرى بالنسبة لقضية التجسس بصفة عامة : أو قضية الجواسيس — الجواسيس ينقسمون إلى قسمين :

قسم يؤمن بعمله ويوظف نفسه له عن طواعية ودون مقابل ، ليبلغ الحكومة أخبار خصومها الذين يتآمرون عليها — وليس الذين ينقدونها بالكلمة — هؤلاء قد نجد لهم مبرراً فى عملهم ، . . ولأن هذه المشكلة دقيقة . . فإننى أتمثلها كالآتى . . حكومة صالحة تعمل بإخلاص لحساب الشعب ، يتآمر عليها بعض المواطنين الذين قد يكون لهم

ارتباطات بدول أجنبية سواء يعلمون حقيقة هذه الارتباطات أو يجهلونها . . هؤلاء المتآمرون قد لا يكتفون بالتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم الفكرية أو السياسية بل قديتآمرون ضد الحكومة الصالحة ويعملون على تغييرها لصالحهم . . فإذا تطوع بعض الناس للتعرف على أخبار المتآمرين إيماناً منهم بأن هذا العمل فيه مصلحة للأمة ، إن هؤلاء قد نجد لهم مبرراً لتصرفهم . . ولقد قام نعيم رضى الله عنه بهذا الدور فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الرسول منه هذا العمل . . ولكن الرسول كره أن يقوم البعض بإبلاغه بأخبار أصحابه وكان يقول لهم ما معناه إننى أحب أن أخرج على أصحابى وليس فى صدرى شىء . . بل إنه كره أن تكشف أسرار جرائم شاء الله أن يسترها . . . فقال لمن أبلغه أنه رأى رجلا ملتصقاً بامرأة قال ما معناه هلا سترتهما بثوبك . .

هذا العمل بكل القيود التى أوردتها لا نعتبره عملا لا أخلاقياً . . أما العمل اللا أخلاقى بل والذى يخالف آداب الدين فهو تجسس البعض على زملائهم ، ونقل أخبارهم إلى الحاكم . . سواء كانت هذه الأخبار صحيحة أم كاذبة . . وللإيضاح أقول أن الذى ينقل أخبار مواطنيه إلى الحاكم سواء كان يقوم بهذا العمل فى مقابل أجر ، أو بدون أجر ، وسواء كان عن خوف من الحاكم أو عن رغبة فى رفده ، هذا المواطن لا أخلاق له ، ويضاعف من جريمته إذا كان الحاكم ظالماً مستبداً أو متآمراً ضد أمته . . أن هذا اللون من التجسس فيه أضرار بالأمة وبالأفراد ، وفيه مخالفة للشرع ، وقد نهى رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن الاضرار بالناس ..قال « لا ضرر ولا ضرار » . . فإذا طبقنا هذه القواعد على ماكان يقوم به قليل ممن فتنوا من المعتقلين من تجسس على إخوانهم لصالح الحكومة فإن أبسط ما يوصف به عملهم أنهم كانوا يضارون بإخوانهم المسلمين ، ويكفى أنهم كانوا يعوقون الإفراج عنهم . . وكان هؤلاء الجواسيس يستهدفون من وراء عملهم تعجيل الإفراج عن أنفسهم ، أو حمايتهم من الاعتقال مسبقاً . . تقول لى : مارأيك فيمن كانوا يقومون بهذا الدور ؟ أقول .. إننى قسمتهم إلى ثلاثة أقسام . . قسم منهم لا يزال يواصل مهمته إلى الآن . . إن هذا القسم يتحمل إثمه بين يدى الله . . ويحسن تجنب شره واتقاء ضرره . وقسم ثان كان يخطىء وهو بداخل السجن ، وكان خطأه تحت ضغط ظروف السجن أو الطمع فى التخفيف عن نفسه . . هذا القسم يحسن الرفق به حتى يصحح ما بنفسه ثم يذكر بالله حتى يتوب وينيب ، ومن مستلزمات التوبة إصلاح ما ارتكبه من أخطاء فى حق الآخرين . . إن الذى يهمنى فى هذا الأمر هو أن نستبين الحق من الباطل ، ونلزم أنفسنا بضابط إسلامى سليم حتى لا يختلط علينا الأمر ونحتكم إلى أهوائنا وشهواتنا ، ولو أننا ألزمنا أنفسنا بالضوابط الإسلامية من أول الطريق لما أقدم بعض إخواننا على الخوض فى حق الآخرين .

وهناك فريق من المعتقلين أخطأ على الطريق أخطاء بسيطة لم يكن يدرك أبعادها ، كأن يكتب تقارير صادقة عن زملائه ، معتقدا أنه

لايقول إلا الصدق ، إننى لا أبرىء هذا الصنف من إخواننا لأن الحكومة كانت متحفزة للضرب بشدة على يد من يبدى أى رأى مخالف لها ، أو يمس ولو من بعيد سياستها أو يتعرض بالنقد للقائمين على هذه السياسة ، وفى ظنى أن هؤلاء لو كانوا يدركون أبعاد أخطائهم لأحجموا عن فعلتهم ، ومما أذكره بهذا الصدد أن أحد الضباط وهو عبدالعال سلومة استدعانى وقال لى: يجب عليك أن تقول لنا من هم « الوحشين من الإخوان ومن هم الكويسين » بعد أن ثبت لنا أنك لم تدخل فى التآمر ضد الحكومة (كان ذلك فى سنة ١٩٦٥) ، فقلت له أن من حاكمتموهم بتهمة التآمر يعتبرون بحكم هذا القياس من الوحشين ، أما بقية المعتقلين فإننى اعتبرهم من الكويسين لأنهم لم يتآمروا ضد الحكومة . . فامتعض الضابط من جوابى هذا وأسرها فى نفسه ، لأنه أدرك أننى أتهرب من التعاون معه ، والحقيقة أنى لم أكن أعنى ما أقول من أن الوحشين هم من حكم عليهم بالسجن ، لأنى كنت فى يوم من الأيام من المساجين ، ولكنى فى الواقع كنت أحرص على أن أجنب نفسى الخوض فى المعتقلين الذين أعيش معهم ، أما المساجين فكانوا فى مكان آخر ولن يفيدهم أو ينفعهم حكمى عليهم ، ثم إنه لم يكن بالإمكان إلا التسليم بما تراه الحكومة وإلا تحولنا إلى مساجين مثلهم .

أعود فأقول إن هذا الصنف الأخير من إخواننا يحتاج لتصحيح نفسه وتصحيح مفاهيمه والاستغفار عما اقترفه فى حق إخوانه . .

أما موقفى الشخصى من هذه الفئات جميعاً فإننى أقول أن هذه الوظيفة سواء كانت للصالح العام أو ضده فإننى لا أحب ممارستها . . ولوكانت لحساب حكومة صالحة مباركة . . ولقد أكرمنى الله بعدم الخوض فى حق الغير سواء كانوا من الإخوان أو من غيرهم ، ولقد حرصت على طول الطريق تجنب هذا المسلك بجميع صوره ، حتى أننى رفضت فى أول الثورة عرضاً من أحد قادتها بأن أخبره عن تحركات الشيوعيين . كما رفضت أن أقوم بهذا الدور ضد خصوم الإخوان . والحمد لله الذى عافانى .

أعـود للحديث عن معتقل طرة .

نظراً لظروفى الصحية ، أرسلوا بى إلى مستشفى الليمان حيث كان ينزل به عدد ممن ألح عليهم المرض . وأوشكوا على النهاية المحتومة وهى الموت ، وإلى جانب هؤلاء كان يقيم بالمستشفى مجموعة من المكرمين من الحكومة أو من المباحث العامة ، هذا عدا مجموعة من الأطباء كانت مهمتهم مساعدة طبيب السجن الذى كان يعمل فى نفس الوقت لحساب المباحث العامة . . . عشت فى هذه المستشفى قرابة عام ، وكنت أحاول جهدى الإقامة فيها لأنها تعتبر مكاناً ممتازاً بالنسبة للعنابر التى كان يحشر فيها المئات من إخواننا فى جو خانق متعب ، وكانوا فضلا عن حرمانهم من النوم المريح ، والنظافة ، والطعام المناسب ، كانوا يعانون من تعقب المخبرين لهم ، الذين تمكنوا من تكميم أفواه الجميع حتى فى المسائل المتعلقة بالأمور

المعيشية . . . ومما أذكره أن أحد المخبرين نقل إلى إدارة السجن فإدارة المباحث العامة قول أحد المعتقلين « هوا احنا فراخ يمسكونا ويحطونا فى الأقفاص » . . . هذا المعتقل المسكين حمل إلى معتقل أبى زعبل حيث ذاق من العذاب أمره . . ولقد بلغ الضيق بأحد المعتقلين أن هتف وهو ينظر إلى السماء من خلال القضبان الحديدية « لو كنا نعبد معزة لأنقذتنا » إننى أذكر هذه العبارة على الرغم منى . ولكن حرصى على تسجيل الأحداث مجردة وكما شهدتها أرجو أن يغفر لى ربى مثل هذا التعبير الممجوج . . ولا يسعنا الآن وبعد أن تعرى الباطل ، وتكشف الحق ، وامتدت يد القصاص الربانية إلى هؤلاء المجرمين إلا أن نبسط أيدينا شكراً لله على وافر رحمته .

إن القارىء قد يمر على هذه الفترة كما تمر عيناه على هذه السطور ، وقد ينفعل بها انفعالا خاطفاً ، ولكنه لو عاشها كما عشناها لارتجف قلبه ، وصعقت نفسه عند كل موقف من المواقف .. فمثلا على الرغم من عدم وجود مكان للتعذيب بمعتقل طرة ، إلا أننا كنا نعيش فى رعب دائم مخافة أن يستدعونا للسجن الحربى الذى كانت تجرى فيه أفظع صور التعذيب على أيدى جهاز المخابرات ، والذى كان يضم حسب زعمهم أخطر الإخوان من زعماء الجهاز ، يليه فى المرتبة أبوزعبل الذى تحدثت عن $\frac{1}{100}$ مما كان يجرى فيه . أقول على الرغم من أننا كنا نعيش فى سلام نسبى إلا أن استدعاء واحد منا يعنى أنه سيشهد عذاباً رهيباً ، وقد يلقى الله نتيجة لهذا العذاب . . هذه هى الحالة

النفسية التى كنا نعيش فيها ، رعب وفزع دائمين ، حتى غدا الموت من أحب أمانينا ، ولولا مخافة الله فى الآخرة ويتم أولادنا فى الدنيا لما توانينا عن إزهاق أرواحنا بأنفسنا ، لأنه خيل إلينا أن العذاب قد كتب علينا ما عشنا ، وتأول بعضنا ما نلاقيه قرينة على غضب الله علينا لأننا كنا على ضلال ، وبالتالى فنحن نستحق العقوبة من الله ، ومن حسن حظنا أن هذا الشعور لم يكن منتشراً بيننا ، بل على العكس فقد أكدت لنا محنة ١٩٦٥ أننا مظلومون ١٠٠٪ ، لأن معظمنا كانوا قد شغلوا بأنفسهم ومعاشهم عن كل شىء بعد خروجهم من السجن أو المعتقل الأول . مما دعا البعض إلى تفسير ابتلائنا على أنه نتيجة لانشغالنا بأنفسنا وتفريطنا فى حق دعوتنا ، أما ما كنت أذهب إليه من تفسير فهو أن ما نلاقيه من عذاب هو نوع من الابتلاء ، أراده الله لحكمة يعلمها هو ، وأولى بنا أن نصبر ونحتسب ونتقبل حكم الله برضى نفس وطيب خاطر ، واحتساب عند الله . . ولأعد لحديثى عن معتقل طرة مكتفياً بالتعرض لجوانب يهمنى ويهم القارىء الحديث عنها ، وفى اعتقادى أن من أهمها التوعية . والتوعية معناها ترشيد الإخوان بالتخلى عن أفكارهم ، وإحلال أفكار الثورة محلها ، وكانت التوعية على صورتين ،الأولى على شكل محاضرات يلقيها أساتذة من الخارج ، أذكر منهم عبد العزيز كامل ، والشيخ بدران ، وكانت المحاضرات تستهدف توعيتنا بالإسلام الصحيح على حد زعمهم وتجنيبنا مفاهيم الإخوان الخاطئة . . ! ! ثم شرح أهداف الثورة . . ولا أذكر من المحاضرات إلا محاضرتين . واحدة ألقاها عبد العزيز كامل وكان

موضوعها ماذا قدمت الثورة للإسلام والثانية للشيخ بدران وكانت فى الواقع ممتعة للغاية وتتسم بالموضوعية ، حتى خيل إلينا أن الرجل كان معنا وليس علينا . . أما النوع الآخر من التوعية فجاء نتيجة لطلب ملح من بعض المعتقلين أو آحاد من المعتقلين المتحمسين للحكومة ، والذين كان يعمل معظمهم مع جهاز المباحث فلقد طلب هؤلاء – وكانوا من المساجين الذين أفرج عنهم من قبل – طلبوا من رئيس المباحث السماح لهم بتوعية الإخوان . والكشف لهم عن تجربتهم بالسجون ، وفضح أسرار الجماعة وقيادتها ! ! ولقد استجاب رجال المباحث لهذا الاتجاه . . وجاءنا وفد منهم بقيادة وكيل المباحث العامة وكانوا قد رشحوا ، لمقابلته اثنى عشر معتقلا من الذين سبق لهم أن سجنوا أو من الذين لهم مكانتهم فى صفوف الإخوان . . وأعتقد أن ترشيحنا جاء بناء على تزكية من هؤلاء الذين اقترحوا فكرة التوعية . . وكان من المرشحين : حسين عبد الدايم ، ونجيب الكيلانى ، والمرحوم على المنوفى ، والصياد ، وعبد العزيز إسماعيل ، ومحمود الفوال ، وكنت من بينهم . . وقد وقع اختيارهم على لأكون أول المتحدثين ، فأدركت من أولها أن المقصود توريطى « لمرطتى » وتشويه سمعتى والنيل منى ، لأننى كنت أستمتع بسمعة طيبة فى نفوس الإخوان . . ثم أوصانا رجال المباحث بأن نهتم بتشويه سمعة الإخوان وقادتها .

حرت فى الأمر ماذا أقول وماذا أفعل ؟ ؟ فأنا بين نارين . . إن تحدثت عما يعتمل بنفسى ، فليس لى من جزاء إلا العصا أما إذا تحدثت

بناء على توجيه المباحث العامة فقد أستشعر الندم ، ويبدو أن بعض الإخوة لمسوا حيرتى فاشتركوا فى تأليف قصيدة طريفة أذكر منها :

« طفنيس » يا ست القـرى   يا وردة بـين الـورا
هـذا فتـاك قـادم   للتوعيـات قـد انبرى
« حق الحـلاوة » جاهـز   إن قـال قـولا نـيرا
« والأهـلا أهـلا » حاضر   إن قـال قـولا منكرا

طفنيس : قريتى وهى تقع فى أعلى الصعيد .

حق الحلاوة — علبة الحلاوة الطحينية .

الأهلا أهلا — أى الضرب .

ومعنى هذه القصيدة أن زملائى سوف يهدوننى علبة من الحلاوة الطحينية إذا وفقت فى حديثى ، أما إذا لم أوفق فلسوف يضربنى رجال المباحث العامة .

حرت فى أمرى حيرة لا مثيل لها لأننى كنت وما زلت حريصاً على ألا أمس الجماعة بسوء ، أو أنال من إخوانى ومعظمهم تربطنى بهم علاقة طيبة . كما كنت حريصاً على عدم المساس بمن يعيشون تحت وطأة السجون.. . وأخيراً قررت أن أنقد نفسى أولا ، ثم أنقد الجماعة فى أمرين أولهما تشكيلها للأجهزة السرية ، ثانياً ما عرف عنها من أنها جماعة المسلمين وليست جماعة من المسلمين .

والذى لا أنساه هو أننى كنت غير موفق فى كلامى كخطيب وإن

كنت أعتقد أنني وفقت في الهروب من المساس بالآخرين . . لقد كان لساني ثقيلا كأن جبلا رقد فوقه ، وكانت نفسي مثقلة بضيق لا حدود له . . ولقد حاول بعض المعتقلين التقرب للمباحث العامة على حسابي على أمل التعجيل بالإفراج عنهم ، فوقف واحد منهم ، واتهمني بأنني تهربت من الحديث عن الإخوان . . وفي الواقع كان محقاً فيما قال . . أما الثاني فكان مضحكاً لأنه اتهمني بأنني كنت قد صرفته عن الإسهام في حرب القناة سنة ١٩٥١ وأوعزت إليه أن ينتظر إلى أن أجد له فرصة أخرى ، فذهب في تفسيره لكلامي أنني كنت أعده للانضمام للجهاز السري للإخوان . . وكان ردي على هذا الشاب سؤالي إياه عن عمره وقتها أي عام ١٩٥١ فتبين أنه كان في الخامسة عشرة فقلت له أنه ليس من المعقول أن أقبل تجنيدك للحرب معنا وأنت في مثل عمرك . . ولقد علمت فيما بعد أن هذا الشاب كان قد غرر به واحد من عملاء المباحث العامة وذلك للنيل مني .

وبعد أن تكلمت تعاقب الخطباء ، وكانوا صنفين . . صنف حرص على أن يقول كلاماً يدفع به عن نفسه ، وصنف آخر اتجه إلى النيل من الجماعة وقادتها وتاريخها وكل شيء يتصل بها . . وانتهت المحاضرات التي استمرت حوالي الشهر ، وانتظرنا بعدها قراراً بالإفراج عنا ، ولكن الحكومة خيبت ظننا جميعاً ، واكتفت بتخفيف بعض القيود المفروضة علينا . . . بعد محاولات كثيرة حولت لمستشفى قصر العيني للعلاج ، إلا أن حالتي الصحية بدأت تتدهور وأشارت التحليلات

الطبية إلى أن كليتى الثانية قد أصيبت بنفس إصابة الكلية الأولى ، ولم يزعجنى هذا الأمر كثيراً . ذلك لأن إحساساً ما يصاحبنى دائماً ، ويؤكد لى أن واجبى لايزال قائماً . وإن الله سيمد فى عمرى لأداء رسالتى ، هذا الإحساس كنت أستشعره فى باكورة شبابى وكان يتجه وقتها إلى طموح دنيوى . وهو أننى سوف أكون حاكماً لمصر ، ولقد تصاعد هذا الإحساس بنفسى حتى أننى فاتحت صديقى وابن عمى المرحوم المستشار أبو الحسن فراج وقلت له أننى سأكون حاكماً لمصر ، والعجيب أنى حددت تاريخاً لتحقيق أمنيتى وهو عام ١٩٥١ . . هذا الخاطر أو هذه الأمنية تم فيها تحول كبير بعد تذوقى للعمل الإسلامى وإدراكى أبعاده .وغدوت أومن أن الأصل هو أن أعمل لله ، ابتغاء مرضاته . . فلعل كلمة طيبة أو عملا صادقاً . أو موقفاً كريماً أو نصيحة خالصة ، لعل أى شىء أقدمه اليوم ومهما يكن صغيراً قد يؤتى بثمار كبيرة تفضل مئات المرات الحكم والقيادة والرئاسة . . . لأن الحكم عمل مرحلى . أما الكلمة ،والعمل ، والتصرف فقد تكون لها أبعادها التى لا نهاية لها . . إن الخالد من تاريخ عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين ، وابن تيمية ، أعمالهم ومواقفهم الإنسانية والأخلاقية . حتى أنها رجحت سياستهم وحكمهم ومواقفهم البطولية . . إن البطولة الحقة قد يصنعها الأفراد العاديون ، وقد يطويهم التراب دون أن يكون لهم فى الناس ذكر أو اسم .

أعود إلى قصتى فى معتقل مستشفى قصر العينى . .

لقد مرت على عدة مشاهد متنوعة تحمل طابع الأسى والحزن . . فقد كان معتقل السجن يتلقى الحالات شبه الميئوس منها ، التى كانت تنتهى عادة بالموت أو بالعطل الكامل . . كان معى بعض المعتقلين ممن تجاوزوا السبعين من عمرهم ، وكانوا لايجدون إلا القليل من العناية الطبية على الرغم من تعاطف الجهاز الطبى معنا . أذكر من هؤلاء شيخاً فى السبعين من عمره كان يشغل قبل اعتقاله وظيفة رئيس الجمعية الشرعية بالجيزة ،وكما سبق أن قلت أن حملة اعتقال الإخوان التى تمت عام ١٩٦٥ شملت أنصار السنة ، والجمعية الشرعية ، وجماعة التبليغ وجمعية الهداية ، وكل من له سابق علاقة بجمعيات دينية ،ولاأدرى ما السبب فى هذه الحملة ! ! . لكننى أعتقد أن اتجاهاً ما كان يحرص على تصفية العمل الإسلامى فى شخص الإخوان فانتهز الفرصة ليمد يده إلى كل الجمعيات الإسلامية الظاهرة والخفية – وسواء كان عبد الناصر مدبراً لهذه التصفية أو أنها جاءت تلقائية فإنه المسئول الأول عنها . . هذا الشيخ رحمه الله والذى نسيت اسمه كان ضحية الإهمال وعدم الرعاية ، ولقد شهدت ساعة صعود روحه ، فقد تسجى على الأرض وبسط يداه إلى جانبه وأخذ يتلو القرآن وأظنه كان يقرأ سورة يس إلى أن فاضت روحه دون أن يتأوه . . إننى لا أنسى مشهد هـذا الرجل . . إنه يتمثل أمامى كلما تذكرت إخوانى الشهداء وما أكثرهم .

وكان يرقد إلى جوارى شاب نابه كان يعمل معيداً بكلية الهندسة ، وقد أصيب بانفصال شبكى فى عينيه نتيجة الضرب ، وفى حجرة مجاورة لنا كان الموت يتربص ببعض الإخوان الذين أصيبوا بأمراض

خبيثة ومستعصية منها السرطان . . ولقد روعت أيما روع عندما أحضر المرحوم منير دله من السجن فى حالة غيبوبة تامة ، ولم نجد من ينقذه فى حين أنه كان ينزف بشدة ، فلما هممنا بمساعدته حال بيننا وبين غايتنا ضابط غريب التصرف . . ولحسن الحظ كانت علاقتى بهذا الضابط طيبة فتحايلت عليه حتى سمح لى بتقديم الخدمات له ، ولقد ظن هذا الضابط أنه بإهماله لمنير دله سوف يكون محظياً عند جهاز المباحث ، فى حين أن الأمر كان على العكس من ذلك فقد أوصى أحد المسئولين بالمباحث العامة للعناية بمنير فأنقذه الله وعافاه . . ولقد شهدت آثار العذاب فى ساق منير ، كان ساقه ممزقاً من العصى والكرابيج بشكل ملحوظ ، ولم تكف عامان لإزالة آثار التعذيب . . وللذكر منير فإن الرجل كان يتهم بالارستقراطية فى صفوف بعض الإخوان . ولكنى أشهد للرجل أنه كان نقياً تقياً قواماً لليل وكان ينفق على الجميع بسخاء ، وفى نفس الوقت كان يمتع نفسه من حلاله . يضاف إلى هذه المآسى التى لقيناها فى قصر العينى ، وجود رجال المباحث العامة الرسميين فيما بيننا ، علاوة على مساعديهم من بعض المعتقلين الذين كانوا على استعداد لبذل كل شىء فى سبيل البقاء فى المستشفى .

كان أحد رجال المباحث وهو مخبر يضطرنا تحت تهديده بكتابة تقارير ضدنا ، أو تطمينه لنا بكتابة تقارير لصالحنا ، كان يضطرنا لأن نعطيه نصف طعامنا الطيب ، ويترك لنا الطعام العادى ، وكان يتحكم فينا وفى حركاتنا وسكناتنا ، ولا يسكت عنا إلا إذا قدمنا له ما يطلبه من طعام وفاكهة وشاى .

وأثناء وجودى بالمعتقل وقعت أحداث يونيو ١٩٦٧ ولقد شهدت روعة الأيام التى سبقت يونيو ، كما شهدت مأساة ما بعد يونيو .. كان فرح الشعب والشباب وطلبة الجامعة الذين كنت أشاهدهم من خصاص نافذة المعتقل لا يكاد يتصوره أحد . . كان الجميع يرقصون من شدة الفرح لتصريحات عبد الناصر الذى كان يهدد بإلقاء إسرائيل فى البحر ، ويقول لإيدن أنا « مش خرع زيك » . وكانت البلاغات الأولى تبشر بانتصارات رائعة . . ولقد أرسلت برقية لعبد الناصر أعرض تطوعى للقتال ، وحرصت أن أكون مثالياً فقلت أننى مستعد للعودة للمعتقل بعد أن أؤدى واجبى . . وبعد أيام ظهرت الحقيقة وامتلأت المستشفى بجرحى النابالم .. وأعلن عبد الناصر فى التليفزيون ، والإذاعة عن حقيقة المأساة . . ويومها بكيت أشد البكاء . . ولم يكن بكائى من أجل عبد الناصر بل كان من أجل البلد الحبيب ، بكيت لأننى أدركت حجم المأساة ، وتصورت سيناء وكأنها بركة من دم . . أما بالنسبة لعبد الناصر فكان تعليقى على موقفه قبل وقوع الأحداث أن عبد الناصر إذا تمكن من تسجيل انتصار على إسرائيل فإنه سوف يحطم جميع خصومه فى الداخل والخارج ، أما إذا هزم فإنها ستكون نهايته مهما بذل من محاولات ،وقد كان .

وتلاحقت الأحداث ، أحداث التاسع من يونيو وما بعدها . .

أما بالنسبة لنا معشر المرضى فقد أمروا بإعادتنا للمعتقل . . والذى لا أنكره أننا على الرغم من فرط ألمنا على ما جرى فى سيناء ، لأنه

حدث خطير يمس حياتنا ومستقبلنا بل وعقيدتنا . . لأن اليهود الذين كنا ننظر إليهم باحتقار وازدراء ونحن نحاربهم عام ١٩٤٨ تطاولوا حتى احتلوا في ساعات قسماً كبيراً من مصر . . . أقول أننا على الرغم من هذا فإن الكثير منا شمت في عبد الناصر الذى كان يستمتع بسجننا وتعذيبنا وحرماننا من حق الحياة والحرية ويباعد بيننا وبين أهلينا وأولادنا . شمتنا فيه حقاً وتمنينا له الزوال . . إلا أننى كنت أغالب عاطفتى وأحاول أن أتصور جمال عبد الناصر وقد هداه الله بعد نكبة وأنه سوف يثوب إلى رشده ، ويحاول أن يدرس السبب الحقيقى لهزيمة سنة ١٩٦٧ ، والهزائم التى سبقتها في اليمن وفى سوريا ، ولكن عبد الناصر لم يتغير لأنه كان يؤمن بعبد الناصر . . وبالتالى فإنه ألقى بتهمة الهزيمة على أقرب أعوانه وهو عبد الحكيم عامر وأنصاره ، واستخلص نفسه من أكبر وأخطر جريمة يرتكبها حاكم في حق أمته .

ولو سألتنى عن أسباب هزيمة عبد الناصر لقلت لك إن إيمان عبد الناصر بنفسه هو الذى قتل أمته وقتل عبد الناصر .

ومع هذا كله فإن عبد الناصر بدأ بالإفراج عن بعضنا ليوهمنا ويوهم المجتمع بأنه سيصلح من سياسته ، وقد أفرج عنى في أواخر سنة ١٩٦٧ إلا أنه وبعد أن استعاد قبضته تباطأ في الإفراج عن الآخرين وظلت المعتقلات مفتوحة في عهده إلى أن تم إغلاقها في عهد السادات .

بعد الإفراج عنى وجدت نفسى أعيش محنة الاعتقال المفتوح والتى تحدثت عنها بعد الإفراج عنى في عام ١٩٦١ .. مراقبة متصلة ، ملاحقة في الرزق ، تجسس دائم وفى كل مكان . . وعدت إلى أخبار

اليوم وإلى مكتبي ولكن الجو العام لم يكن ليسمح لى بالعمل المنتج ، يضاف إلى هذا أنى اضطررت لإجراء عملية جراحية فى مستشفى القوات المسلحة ، وتصادف أن كان جمال سالم يعالج من داء السرطان فى الحجرة التى تعلو حجرتى ، وكانت أخباره المحزنة المؤلمة تأتينى من طريق الممرضات ، ومما بلغنى عنه أنه كان يتوهم أشباحاً مخيفة ، وكان يلقى « بطفاية » السجائر فى الهواء ليدفع عنه الأشباح .

خرجت من المستشفى بعد أن أجريت لى عملية بالغة الخطورة ، وقررت الخروج من مصر هرباً بدينى وحماية لنفسى من فتن كقطع الليل المظلم ، واستطعت من طريق الصحيفة أن أسافر إلى الكويت تاركاً زوجة عاشت عمرها فى عذاب وآلام وأربع بنيات كبراهن فى الثالثة عشرة من عمرها ، وطفل تحمله الأم وتعانى من آلام حمله . .

تركت بلداً عشتها بطولها وعرضها ، وتركت فيها حبى الكبير فى زوجتى وأولادى ، وتركت أهلا كانوا فى أمس الحاجة إلى ، وتركت تاريخاً كريماً ونضالا حراً شاء الله أن أشارك فيه بقدر ما استطعت وتركت رجالا ونساء يعانون ظلم حاكم لم ترد الرحمة على قلبه .

وتركت شعباً حوله حاكمه إلى « قطيع » يسوقه بقسوة وجبروت ، وقد فل منه معظم أسلحته .. ولم يكن بمقدور الرافضين أن يتصدوا له ، أو يوقفوه عند حده وخاصة بعد أن تمكن من ضرب أقرب الناس إليه .

تركت الجاسوسية والغدر والخيانة التى سلطها علينا عبدالناصر وتركت نفاقاً تفشى فى الناس ، حتى غدا أشد الناس عداء له أكثرهم تصفيقاً له . .

وقلت لتكن لى سياحة فى الأرض ، ومهما تكن هذه الأرض فلن يكون فيها هذا القدر من الظلم الذى يجرى فى مصر . . وحل بى المقام بالكويت . . وعشت فيها عامين لم يغادرنى شبح عبد الناصر وأحلافه . . وانتهى عبد الناصر . . وانتهت كثير من المآسى والحمد لله نحن نعالج آثارها . . آثارها فى الجسم وفى النفس .

ولو سألتنى عن آثار هذا المشوار الرهيب ، ونتائجه ، لقلت لك ببساطة وبتحديد هذه هى النتائج :

أولا : ترك عبد الناصر مصر نصفها تحتله الولايات المتحدة شاخصة فى إسرائيل ، والنصف الآخر والذى يقع غربى القناة يحتله عشرون ألف جندى روسى يتحكمون فى الجيش وفى الشعب .

ثانياً : إفلاس اقتصادى رهيب نتيجة للحروب المجنونة والتطبيق الاشتراكى الكاذب واللصوصية الخطيرة .

ثالثاً : تمزق شعبي داخلى ، وخوف وقلق يحتاج لربع قرن لعلاجه .

أما عن آثاره على شخصه وجماعته :

أولا : انتهت الثورة على يديه فقد أجهز على كل قادتها وروادها سواء من علاه فى الرتبة أو من هو دونه . . ولم ينج منهم إلا القليل .

ثانياً : تحطم هو شخصياً وابتلى بأمراض موجعة أودت بحياته . .

أما بالنسبة للإخوان :

أولا : على الرغم من جبروت المحن التى تعرضوا لها ، فإنهم

لا يزالون يؤمنون بالمبادئ الأساسية للإخوان وإن اختلفوا فى أسلوب التطبيق ، أو فى منهج العمل .

ثانياً : استطاع الكثير منهم أن يصلوا إلى مراكز عليا فى الدولة وفى الخارج ، وأصاب بعضهم ثروات لا بأس بها .

ثالثاً : ظهر جيل جديد من الشباب يؤمن بأهداف الإخوان وهو يعمل لها بدأب وصبر . . وعلى الرغم من أخطاء بعضهم إلا أنهم لا يكفون عن العمل .

رابعاً : مما لا ننكره أن بعض الإخوان انتكسوا فى أنفسهم . وآثروا إما الاعتزال ، أو الانضمام لمنظمات أو أحزاب ، أو هزموا فى معركتهم مع الحياة ، فأغراهم الجاه أو المال . . عفا الله عنا وعنهم .

خامساً : ومما لا شك فيه أن تشريد الإخوان فى الأرض جعل منهم دعاة يهدون إلى دين الله ، دون التقيد باسم الإخوان ، وقد قبلهم المجتمع الخارجى بسهولة ، ورضى بهم قادة وروادأ ، وها هم يقودون الثوار الأفغان ضد روسيا ، ويقودون الشعب السورى ضد حافظ الأسد ، ولهم نصيب موفور فى ثورة الشعب الفلسطينى ، ويكفى أنهم دربوا ياسر عرفات فى معسكر الجامعة وآخرين معه ، وهؤلاء وصلوا إلى قمة العمل الفلسطينى بفضل تربية وتدريب الإخوان . ثم إنهم يقودون معظم الجماعات الإسلامية فى العالم العربى والإسلامى ، كذلك انتشروا فى العالم الغربى والولايات المتحدة يساعدون الحركات الإسلامية ويصححون مسارها .

ونستطيع أن نقول أن صدى أدعية المأثورات التى أوصى بها حسن البنا يرددها الآن مسلمون فى اليمن ومسلمون فى الولايات المتحدة فى آن واحد .

لقد انتصرت مبادئ الإخوان وعاشت بفضل قوتها وصلابة دعاتها ولم تهزمها ضربات عبد الناصر وأعوان عبد الناصر ، ومن ظاهر عبد الناصر من دول أو حكومات أو مبادئ .

* * *

وبعــد

وبعد أن وضعت حصيلة تجربة خاضها شاب نشأ على الفطرة ، ثم دخل منها إلى الحياة المعاصرة ، ثم استدل على العمل الإسلامى فى شخص الإخوان المسلمين ، ثم قيض له أن يعمل بالسياسة ، ويعمل فى ميادين القتال ، ويعمل فى الصحافة وفى المحاماة ، وفى الاقتصاد . . ويمر بابتلاءات عديدة . . ويخطىء ويصيب . . هذا الشاب الذى صار شيخاً يرى أن من حق الأجيال القائمة والمقبلة أن يقدم لهم تصوره عن العمل الإسلامى ، وهو إذ يضع تصوره ، لا يطمع فى منصب فى هذا العمل فقد ذهبت المحن بالطمع فى الحياة الدنيا ، ولم يتبق له إلا طمع فى رحمة من الله وفضل . . كما لا يطمع فى ثواب حاكم لأن ما كتبه وما يكتبه لا ولن يعجب أى حاكم . . ثم إنه لا يخاف حاكماً فلم يتبق من الحياة ما يبكى عليه . . ثم إنه لا يكتب ما يستثير غضب حاكم فيخشى بطشه .

بعد هذه المقدمة سأكتب تصورى للعمل الإسلامى ثم تصورى للدولة المسلمة واضعاً أمامى تجربة الماضى . . متوخياً الحكمة وهى ضالة المؤمن ، وسأبدأ حديثى :

نداء إلى كل داعية

على كل داعية مسلم أن يضع خريطة العالم كله أمامه . ويتصور البشرية المنتشرة على هذه الخريطة ويفكر فى هدايتها إلى الله . . عليه ألا يبدأها بالاتهام لأنها لم تعرف شيئاً عن الحق فتتهم بأنها خالفته ، واعتصمت بالباطل .

عليه ألا يضع نفسه فى خندق ليقابل آخر فى خندق آخر ، متهماً إياه بالتآمر قبل أن يتثبت من تآمره . .

وعليه أن يواجه نفسه وهو يخاطب الناس ويسألها سؤالا بسيطاً . . وماذا كنت عليه قبل أن تكون مسلماً ؟ ؟ يقيناً كان أجدادك غير مسلمين . . كانوا أتباع دين آخر أو لم يكن لهم دين . فاحمد ربك أن صرت مسلماً .

وعليه أن يخاطب الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ويمد يده إليهم ليساعدهم على تصحيح أنفسهم ومفاهيمهم .

وما ذكرته لك ليس تشريعاً من عندى أوصيك بالأخذ به . ولكنه مأخوذ من أسلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقدم للناس دعوته . . إنه وضع خريطة البشرية أمامه ، وكل ما كان على خريطة الأمس هو الآن على خريطة القرن العشرين .

كان بعض سكان الأرض يعبدون الكواكب والأصنام والحكام وكان بعضهم يعبدون إلهاً حسب تصورهم وجهالتهم . وكان آخرون يعبدون الله بهدى من كتب سماوية ، وكان آخرون دهريين لا يعبدون إلهاً .

كل هذا كان على خريطة الأمس . . وكل هذا كائن على خريطة اليوم . . فمن البشر من لا يزال يعبد بشراً كالبوذيين والزرادشتيين ، ومنهم من يعبد الله بمفهوم كتب سماوية سبقت القرآن وهؤلاء يحتلون نصف الكرة الأرضية . . ومنهم من لا يعبد رباً ولكنه يعبد رغيف العيش كالدول الشيوعية التي تجردت من الدين وآمنت برغيف العيش . . والحقيقة المرة أن معظم البشر يعبدون الحكام والحكومات على درجات متفاوتة . . لأن الحكام قيدوهم بحدود دولهم وثبتوا حولهم أبنية دستورية تجعل من الإنسان عبداً ذليلا للحاكم ويكفي أن نضع هذه الحقيقة أمام أعيننا لنعرف مدى ما وصل إليه الإنسان من ذل وهوان ، فكل إنسان يبلغ سن الرشد يلزم بحمل السلاح . وهذا يعني أنه مستعد ليسلم روحه لمن يحكمه فإن لم يفعل فإنه يحرم من حق الحياة والعيش ولا يقبل في عمل وظيفي أو غير وظيفي .

هذا هو وضع إنسان القرن العشرين وهو وضع لا يختلف كثيراً عن وضع زميله القديم .

هذا الإنسان القديم ، والإنسان الجديد خاطبه القرآن الكريم من خلال الرسول ودعاته من بعده بأسلوب حكيم ، وأوصى بالصبر

عليه والتحمل فإن أصر على ما هو عليه من كفر قيل له « لكم دينكم ولى دين » « ولا إكراه فى الدين » أما إذا تصدى للدين . وتعدى على رجاله وأعوانه فهناك إذن صريح بالدفاع عن النفس مع وعد أكيد بالنصر « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** » ..

وليكن عنوان الداعية الذى يحمله إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله » .

فالدعوة إلى الله فى القرن العشرين . هى نفسها الدعو إلى فى القرن السادس . . وكتاب الدعوة هو نفسه الكتاب والناس هم الناس . . فلم لا يأخذ الداعية الجديد مسلك الداعية القديم . . . . سيعترض البعض ويقولون : كان الناس فى جاهلية ونحن الآن فى إسلام . . أقول إن هذا فيه تخفيف عنا فالحمد لله أننا وجدنا القرآن كله بين أيدينا وسنة الرسول كلها ، ووجدنا من بيننا من يعرف الكتاب والسنة . . ثم إننا نجد تربة طيبة قد تؤتى ثمارها بسرعة . . وخاصة أن وسائل الإعلام فى عصرنا أكثر يسراً من وسائل الإعلام قديماً . .

إن الداعية المسلم سيجد أمامه من يستجيب له ، ويكون مثله . ولم يكن هذا حال الداعية المسلم قديماً فقد كان يواجه بكفر عنيد . قد يقول الداعية . . إن بعض مسلمى اليوم يعترضون طريق الداعية ولا يمكنونه من أداء رسالته . . أقول ليصبر عليهم ويتحمل حتى ينفذ إلى المسلمين الآخرين . . ثم يستعين بهم ليصل إلى من لم يمسه الإسلام بخيره . ولعل المسلم الجديد يكون أفضل من المسلم القديم . . وقد يجد

الإسلام فى دولة جديدة ما لم يجده فى دولة قديمة فى إسلامها . .
والتاريخ يحكى لنا أن الدول التى دخلت الإسلام كمصر والشام وتركيا قامت بدور أكبر بكثير من دور الحجاز قديماً .

إن الداعية المسلم لا يحده زمان ، ولا يحده مكان ، لأن العقيدة ليست طائفية ، ولا وراثية ، ولا إقليمية ، ولا عنصرية **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»** .

ومن خلال هذا المفهوم الشمولى يجب على الداعية المسلم ألا ينظر إلى شعوب أوربا وأمريكا وروسيا إلا باعتبارها شعوباً لم تفقه الإسلام ولعلها لو فقهته لكانت له داراً مثلها مثل مصر والشام وفارس والحبشة التى كانت خاضعة لوثنية أو لضلال وزيف .

إن هذا المفهوم سوف يغير من خطة الداعية المسلم ، ومن أسلوبه الذى غالباً ما يتأثر بالأقاليم المحدودة التى يعيش فيها الآن فلا يرى الإسلام وأعداءه إلا فى مصر أو الشام أو العراق مثلا .

إن هذا المفهوم يخنق تفكير المسلم . . ويحبسه من الدنيا الواسعة .
قد يعترض الداعية ويقول ، ألا أبدأ بنفسى أى بالدول الإسلامية التى أعيش فيها ثم أنتقل إلى الدول الأخرى .

أقول : إن تأكيد المفهوم الشمولى للدعوة الإسلامية هو الذى سيهدى الداعية إلى أسلوب الدعوة . . وإلى منهاج العمل ، فقد يجد فى أرضه

متسعاً لدعوته ليستقطب آخرين ، وقد لا يجد متسعاً فعليه أن ينشد أرضاً أخرى .

قد يقول لى : أليس من الأفضل أن أحقق الإسلام ولو فى دولة صغيرة لأجعل منها نموذجاً يحتذى به . . كما حدث فى المدينة ؟ ؟ .

أقول : إن هذا هو أفضل أسلوب ولو تحقق لحل جميع مشكلاتنا لأن تحقيق الإسلام فى دولة مهما كان عدد سكانها سيجعل منها « معرضاً » نموذجياً لتطبيق الإسلام ولسوف تسعى الشعوب والحكومات لتطبيقه فى أرضها .

ولكن ما السبيل إلى ذلك ، والدول الكبرى تحارب عن جهل الإسلام والمسلمين ، والمسلمون فى الدول الإسلامية قد عموا وصموا من خلال الدعاية المغرضة ، عن جوهر الإسلام فحاربوه دون أن يفقهوه .

ثم هناك مشكلة خطيرة وهى أن الكثير من الدعاة ، والجماعات الإسلامية لم تكن على مستوى الفهم الصحيح ، وبالتالى لم تستطع أن تقود الشعوب الإسلامية . . وتهديها إلى الطريق السليم ؟ ؟ .

من أجل هذا أقول لنبدأ بالفرد المسلم . . فإذا فهم إسلامه ، وفهم أسلوب الدعوة إلى الإسلام فى هذا القرن ، وإذا التزم بإسلامه سلوكاً وخلقاً . . فإن المشكلة ستجد لها حلا . . وأعنى بالمشكلة مشكلة الجماعة المسلمة ومشكلة الدولة المسلمة ومشكلة الأمة المسلمة ومشكلة العالم المسلم .

ومن هنا نبدأ

نبدأ بالتعرف إلى القرآن ، كيف نزل ، وبم نزل ، وعلى من نزل . . وندرس كل هذا دراسة سهلة ميسورة بحيث نتذوق هـذا الكتاب العظيم . . ثم نتعرف إلى الرسول من خلال القرآن ، ومن خلال سيرته وسننه . . ونستشعره بكل عظمته ، ونتمثل خطاه ، ونندمج فى أصحابه الكرام ، لنصلح أنفسنا بهم ، حتى إذا استوى فهمنا ، واستوى سلوكنا ، دعونا الناس ليشاركونا فرحة الإيمان والحب واليقين ، وأفضنا عليهم من المعرفة والعلم ما يصلح أنفسهم وعقولهم .

وليس المفروض فى الداعية المسلم أن يقفل على نفسه الأبواب حتى يصل إلى الدرجة القصوى من العلم ، ثم يخرج بعد ذلك ليبلغ الناس ويدعوهم إلى الله . . إن هذا المفهوم يحتاج إلى تصحيح . . فيكفى أن يعرف الداعية أصول دينه ، وفقه العبادة ، وبعضاً من علوم القرآن والحديث . . ليدعو الناس إلى الله . . ولكن عليه أن يحذر من الجرأة بالفتوى ، أو الاجتهاد قبل أن يحيط بقدر وافر من العلم والمعرفة . . واحذر أكثر وأكثر من إصدار الأحكام الشرعية ، ومواجهة الناس بها ، ومحاسبتهم عليها ، مما قد يعرض حياة الناس أو أموالهم لمخاطر

غير مأمونة العواقب . . كأن يتهم هذا أو ذاك بالكفر ، ويحاسبه على كفره . . أو يقول بحل معاملات تجارية أو بحرمتها دون بينة أو علم .

وعلى الداعية المسلم أن يضع « الحكمة » موضع القانون أو أكثر وهو يخاطب مجتمعه ، فيأخذ الناس بالرفق والمودة ، ويفيض عليهم من الحب والرحمة ما يشرح بها صدورهم . . ويسترجع نصيحة ربنا الغالية لرسوله « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . .

وعلى الداعية المسلم أن يتسلح بكل أسلحة العصر الحديثة وهو يدعو الناس . . ليكن الطبيب الماهر ، والصانع الماهر ، والمهندس الخبير ، والمعلم العالم ، ومن خلال خبرته وعلمه يستطيع أن ينفذ إلى العقول الراجحة والخبرات المتخصصة ، لأنها صاحبة الكلمة العليا فى قيادة البشرية .

خلاصة القول أن على داعية القرن العشرين أن يأخذ بكل الأسباب الممكنة للوصول إلى الإنسان المعاصر . . ولكن سيثور سؤال :

وماذا يفعل فى مواجهة مشاكل عصره :

الجواب على هذا السؤال يحتاج لمجلدات ، ولكنى سأحاول فى عجالة أن أجيب عنه .

إن مشاكل عصرنا معقدة لأبعد حد ، ولذلك فهى فى حاجة إلى التفسير أولا ، ثم نفكر بعد ذلك فى وسائل الوقاية منها ، ثم نعمل على إيجاد حلول جذرية لها ، وأتمثل مشكلة عصرنا فى وجود أموال وفيرة

وإمكانيات ضخمة فى يد شعوب ودول خالية من القيم الدينية الأصيلة .

وقد نشأت هذه الدول وترعرعت فى غيبة من الإسلام . . بل إنها وعلى جهل منها حاربته بعنف وضراوة باسم المسيحية منذ ألف عام ، ثم عادت إليه منذ ثلاثة قرون باسم المسيحية أيضاً وظلت إلى يومنا هذا تتدافع عليه محكومة بالدين والمصلحة . . ثم استجد عدوان جديد جاء من نفس الغرب مسلحاً بكفر بواح ومحمياً بالمطرقة والمنجل . . هذه المشكلة بالغة الخطورة لأنها ترتكز إلى قوى مسلحة عنيفة وضارية. وأخطر ما فيها أنها سخرت إمكانياتها لخلق مجتمعات مرفهة ، واستباحت كل القيم والأخلاق المتعارف عليها . . فلم يعد الخمر ولا الزنا ولا لعب الميسر بالأمر المنكر . . بل إنه دخل الحياة بكاملها وصار جزءاً لا يتجزأ منها . . ولقد تمكن هؤلاء القوم بحكم قوتهم المادية من فرض أسلوب حياتهم ومعاشهم علينا ، ووجدوا فينا استعداداً لقبول ما يفعله السيد القوى ، ولكننا فعلناه ببلاهة واندفاع فدمرنا به حياتنا وأفسدنا مجتمعنا . . فأعانونا بشتى الأساليب حتى يتم تخريبنا من داخل أنفسنا . . هذه بإيجاز مصيبة الحضارة الأوربية وانعكاسها علينا .

فماذا نفعل فى مواجهتها ؟ ؟

نفعل ما فعله رسول الله وأصحابه حين ووجهوا بقوم أشبه ما يكونون بمن نعيش معهم .

فأولا حصن نفسه منهم فلم يشاركهم حتى مجالسهم ، ورفض كل أساليب المساومة والإغراء ، فحين عرض عليه الملك والمال رفضهما

بشدة ، وجمع أصحابه من حوله وكون منهم الجماعة الطاهرة النظيفة .. هذه كانت خطوته الأولى .

وكانت خطوته الثانية والتى كانت تصاحب الأولى أنه دعا خصومه وخصوم الحق ليكونوا معه ويهجروا الحياة الماجنة ، كان يذهب إليهم فى الأسواق ، ويزورهم فى دورهم ، ويحادثهم فى الطرقات .. واستطاع بفضل أسلوبه الحكيم ، ومسلكه المستقيم ، وصبره على الناس أن يجتذب إليه الكثير منهم .

هذا الأسلوب يمكننا الأخذ به ونحن نواجه هذه الغارة الهمجية فلنأخذ طريق الرسول فى تربية أنفسنا ، ونتجنب كل باطل عصرنا وفساده ، ثم لنمض إلى هؤلاء القوم لنهديهم إلى الله وندعوهم بكل أسلوب حكيم ليسعدوا بالإيمان ..

قد تقول لى وماذا أفعل إذا أعرضوا .

أقول لك « وما على الرسول إلا البلاغ » . وأقول لك « إنك لا تهدى من أحببت » وأقول لك إنك مهما فعلت فإنه سيعيش معك على أرضك الكافر والظالم والفاسق .. وهؤلاء رسم الله لك أسلوب التعامل معهم .. ستظل تدعوهم وسيظلون على باطلهم وقد يحاربونك وقد يقتلونك فإذا استعصى عليك الأمر ، ولم تجد وسيلة لصدهم بالمعروف فلتكن لك معهم مواجهة .. ولكن حذار أن تكون مواجهتك معهم عدواناً منك فإن هذا مرفوض شرعاً ، ثم حذار ألا تعد لهم العدة الكافية لصد عدوانهم .. والعدة لها أساليبها الكثيرة .. ولها حيلها ، ولها كافة الأسلحة المشروعة ..

وأنت تواجه عصرك حذار أن ترفض كل ما قدمه لك من وسائل الحضارة ، والعلوم المتطورة ، خذ منها كل ما هو طيب واستوعبه .. ولا تقل إن هذا العلم أو هذا العالم كافر فلا آخذ عنه ..لا.. إن رسول الله كان يعد الأسير إذا علم بعض المسلمين القراءة والكتابة أن يفرج عنه ، واعلم أن ما صنعه هؤلاء الناس ، لم يصنعوه لأنهم كفرة ولكنهم صنعوه ليمتعوا أنفسهم به وليبسروا أسباب عيشهم .. فاستمتع بكل صنيعهم وحاول أن تطوعه لدينك ولأخلاقك .

وهل للداعية أن يشكل جماعة مسلمة : الجماعة الإسلامية لا تتحقق إلا من داخل المسجد ، فإذا كان ولابد من إقامتها خارج المسجد ، فعليها ألا تغادر روح المسجد ومنهجه وتوجيهه ، وإلا ضلت سواء السبيل ، والجماعة الملتزمة تأخذ منهج المسجد فى التربية ، وفى الإمامة ، وفى التعاون ، وفى الجهاد .. وبغير هذا تكون الجماعة قد ضلت الطريق المستقيم لأن الجماعة الأولى تكونت فى المسجد ، وتربت فى المسجد ، وتعارفت وتعاونت فى المسجد ، وتشاورت وتناصحت فى المسجد .. ثم حكمت من خلال المسجد ..

وكل مسلم يجب عليه أن يعيش حياة الجماعة سواء فى حيه أو فى قريته أو فى بلدته .. ويؤدى حقوقها عليه ، ويأخذ حقوقه من خلالها .

والجماعات الإسلامية يجب أن تعمل فى كافة ميادين العمل المثمرة وتناقش قضايا الناس عامة ، والمسلمين خاصة ، لأنها إذا قصرت جهودها على المسلمين فقط ، فقد تتحول إلى طائفة من الناس :

تهمها مصالحها الذاتية فقط ، وتفقد أهم خصائص الجماعة المسلمة وهى التبشير بالإسلام ، وخدمة الإنسان أياً كان هذا الإنسان . وأياً كانت عقيدته لأن ولاية الناس معقودة لحامل الرسالة التى جبت كل الرسالات السماوية ، وألغت كل ما عداها .

والجماعات الإسلامية عليها أن تدرس مشاكل المجتمع ، وتضع لها حلولا ، وتشيع التعاون ، والتعاطف بين أفراد المجتمع ، وتقدم المساعدات للضعفاء والمرضى ، والشيوخ .

وعلى الجماعات الإسلامية أن تدرس القضايا العامة ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، ويكون لها فيها رأى عامى مؤسس ، ولها أن تتخذ كل الوسائل لإبلاغ رأيها للناس عامة ، وللحكومات ولأصحاب الرأى .. وتستعين بكل أجهزة الإعلام للتعبير عن رأيها . والمطلوب من الجماعات الإسلامية أن تتعدى الإقليمية إلى الشعوب والدول الأخرى ، فتتدارس أحوالها ومشاكلها ، وتعمل على إيجاد حلول لمشاكل العالم كله ، وعليها أن تجهر برأيها وتبصر الناس به ، فمثلا .. إن العالم الغربى يعانى من عبء الرأسمالية المتحكمة ومن مثالب الحرية الكاذبة ، ومن الفراغ الفكرى ، والعقائدى فلم لا توضح له مفاهيم الإسلام الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وتنقلها إليه بلغة قومه ، والدول والشعوب الشيوعية تعانى كبتاً عقائدياً وضياعاً فكرياً ، وحيرة وقلقاً .. فلم لا نفكر فى لفتهم لأساوب الإسلام فى حل أمثال مشاكلهم .

هذه هى رسالة الجماعات الإسلامية تبدأ بالفرد دون المسجد ، وتمتد إلى العالم كله ومن خلال المسجد .

وماذا يفعل مع الحكومات ؟

الحكم وسيلة إلى غاية ، إنه وسيلة لتحقيق العدل فى الناس ، والتمكين لكلمة الله فى الأرض ، فمن فهمه بهذا المعنى الشمولى ، أدرك أنه ليس أكثر من وسيلة من وسائل الدعاية والإصلاح ، وتقويم المجتمع ، هذا علاوة على تحقيق الأمن للناس فى الداخل وحمايتهم فى الخارج ، وهو بهذا عمل شاق يحتاج من يمارسه إلى عزم وقوة وشجاعة وزهد ، وصبر وتحمل ، وهى صفات ليس من اليسير التحلى بها .. والمسلم الأمين يخشى على نفسه ودينه من فتنة الحكم .. ولكن إذا أسند إليه الحكم لزمه أداء واجبه بأمانة وإخلاص وصدق .. من أجل هذا أقول ما قاله المرحوم حسن البنا « الحكم تكليف لا تشريف » لكن ماذا يفعل الداعية وجماعته إذا ووجه بحكم لا يرضى عنه !! أقول على الداعية وجماعته ، أن يحققا النموذج الصالح للحكومة الصالحة بداخل جماعته ، بمعنى أن يحقق الشورى فى الجماعة ، ويلتزم بنظم الجماعة ، ويشيع العدل فى صفوفها .. فإذا انتصر كان من حقه أن يطالب الحكومات بالشورى وبالعدل وبالقانون .. ومطلوب من الداعية وجماعته الصبر الطويل فى دعوة رجال السلطة ، للالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة .. ويسلك كل طريق لكسب رجال السلطة إلى دعوته ، ولا يبدؤها بالعداء ، فإن أعرضت فليصبر عليها ، فإن ضايقته فليصبر عليها ، أما إذا واجهته بالسلاح ولم يجد وسيلة لإصلاحها فليعمل على فل سلاحها ، أما إذا

استشعر منها عداوة صريحة لدينه ودعوته فعليه أن يعد لها إعداده لأعداء دينه .. وبهذا يكون قد أبرأ إلى الله ، وأعذر إلى الناس ، وصبر واحتسب ، وعليه بعد ذلك أن يدفع عن دينه وعن نفسه **« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . .**

وماذا يفعل مع الأحزاب والجماعات ! ! ليست مهمة الداعية أن ينتظر الناس حتى يطرقوا بابه ، ولكن عليه أن يلتمس كل الوسائل لإبلاغ الناس ، وتبصيرهم بالنور الذى يبشر به ، ولذلك فمهمته قبل الجماعات والأحزاب أن يدعوها بالمعروف لتسلك مسلكاً إسلامياً وهى تمارس نشاطها السياسى أو الاجتماعى ، فإن استجابت فقد سلكت نفس طريقه وعليه أن يعينها عليه ، أما إن أعرضت فليحسن فى تعامله معها ، حتى يكسب ودها ، فإذا عجز فعليه ألا يكسبها عدواً له .. أما إذا تبين له أنها تعادى أصل دينه ، فعليه أن يأخذ حذره منها ثم يعمل على التصدى لها وكشف تآمرها حتى يعزلها عن المجتمع ويكف شرها من الناس . . وفى تصورى أن الجماعات إحدى ثلاث . . جماعة لا دينية وتحارب الدين عن عمد فعلى المسلم أن ينبذ إليها بالعداء ويفضح تآمرها ، وكل الجماعات الشيوعية تضمر العداء للدين كدين سواء كان ديناً إسلامياً أو غير إسلامى .. لأنها تصف الدين بالمخدر وتعمل على حربه واستئصاله من المجتمع .. إلا أننى لا أحبذ استعمال القوة المسلحة فى مواجهة هذه الجماعات إلا إذا حملت السلاح فحينئذ يجب مواجهتها ، وأنى على يقين أن مبادئ الإسلام إذا قدمت للناس بحكمة وبأسلوب عصرى فإنها ستسد الطريق على دعاة الكفر والإلحاد .

وهناك جماعات دينية غير إسلامية وهذه وضح الإسلام التعامل معها فلا إكراه فى الدين ، ولكم دينكم ولى دين .. وليس من حقى أن أعتدى على من يخالفنى ديناً .

أما الأحزاب السياسية فمعظمها يفتقد المبادئ المتكاملة ، وحتى إذا إذا وجد منها من يلتزم ببرنامج سياسى ، فإن المآرب الشخصية والمادية يكون لها السلطان الأكبر على رؤساء هذه الأحزاب وأعوانهم ولذلك فإن هذه الأحزاب غالباً ما تنهار أمام الأفكار الشابة المتطورة . وعلى الجماعة الإسلامية أن تغزو هذه الأحزاب بأفكارها ومثلها ، وتعمل على استقطاب العناصر الصالحة منها .. وتترك الزمن ليصدر حكمه على مخلفات هذه الأحزاب .

أما الجماعات الإسلامية المماثلة فإن من مصالحها أن تتنافس فى العمل وتتجنب التخاصم فيما بينها حتى وإن اختلفت قياداتها أو اختلف مناهجها ، وليأخذوا بالحكمة الخالدة « لنجتمع على ما اتفقنا عليه ، وليعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » .

تصورى عن المجتمع الإسلامى تصور يبدأ من تسليمى بأن قصر الحضارة الذى شيدته البشرية لا ينبغى أن نعترض عليه باعتبار أنه لم يكن من صنع أيدينا ، فننكره وننكر عن وضع أساسه .. لأن الإنسان لم يتعمد الكفر وهو يضع لبناته ، ولكنه وضعه من رغبة فى إسعاد

نفسه ، ثم إنه لم يكن على بينة من العقيدة التى متعنا الله بها ، فرفضنا لكل العطاء الإنسانى ، يعنى عدم فهمنا لديننا ، وعدم فهمنا لواجبنا نحو الإنسانية .. ويكفى أن أضرب مثلا بدخول الإسلام إلى دول حضارية كفارس والروم ، فقد أفاد المسلمون من حضارة هذه الأمم ونقلوا عنها علومها ، بل إنهم استقطبوا منها معظم علمائها ، ولو استرجعنا تاريخ عظماء العلماء المسلمين ، لراعنا أن معظمهم من الدول التى انتقل إليها الإسلام .. وما نبغ فى الدولة الأم إلا عدد محدود نظراً لقلة عدد سكانها ، وضعف إمكانياتها .. على الرغم من أنها مصدر الإشعاع الأول . وهذا لا يعيب الإسلام فى شىء ، بل على العكس فإنه يؤكد عظمة الإسلام ، لأنه على الرغم من ضعف الأمة التى ظهر فيها فإنه انتشر فى أمم أكبر منها حجماً وأقوى منها عدة وأسبق منها حضارة .. وهذا يعنى أن الفكر أقوى من التقدم الحضارى المادى وأن بإمكان الفكر أن يطوى الحضارة تحت جناحه ، وأن الحضارة بكل إمكانياتها لا تستطيع أن تقهر العقيدة السليمة والفكر الحر .. فلم نخشى الحضارة المعاصرة ، ولم نتربص بها ونتهمها ، إن هذا يعنى أننا لا نثق فى قدرتنا ، ولا نفهم مبادئنا ..

والمطلوب منا أن نحتوى الحضارة بكاملها ، ونلبسها الثوب الإسلامى .

والحضارة التى نطالب باحتوائها هى الحضارة المادية المتجردة من خلفية عقائدية ، أو خلفية سلوكية .. فكل بناء حضارى أسس على هدى فكر شيوعى مثلا ، أو فكر استعمارى ، أو فكر دينى

غير إسلامى .. هذا البناء لا يصلح للأخذ عنه ؛ لأن الفكر الإسلامى مبنى على عقيدة ثابتة القواعد قوامها قرآن ورسول .

ولأضرب مثلا إيضاحياً لما أقول .

الطب علم متجرد ، ومما لا شك فيه أن الغرب والشرق سبقونا فى ميدان الطب النظرى والتطبيقى .. فلنأخذ عنهم هذا العلم ولنحاول سبقهم فيه .. ومثل علم الطب الصناعة والزراعة والتجارة المتطورة كلها علوم نظرية وتطبيقية فالأخذ بها والاستفادة منها لا يتناقض البتة مع الإسلام ، ولكن إذا ثبت لنا أن المعاملات التجارية تقوم على أساس من الربا المحرم ديناً فعلينا أن نتجنب كل لون من المعاملة الربوية دون رفض المعاملات الأخرى ، فمثلا البنوك تقوم بخدمات مصرفية لا يشوبها رباً كالحسابات الجارية العادية فلنأخذ كل الخدمات البريئة ولندع ما يشوبها حرام .

ولنأخذ مثلا من الدول الشيوعية المعاصرة .. فهى مثلا تأخذ بنظام المزارع الجماعية .. هذا النظام قد يصلح تطبيقه فى بعض الدول الإسلامية وقد يحتاج لتطوير .. ولكن هذا لا يعنى أخذنا بالفكر الشيوعى عقيدة أو سلوكاً .

قد يعترض البعض ويقولون ، ولم لا نعمل على تقويض هذه الحضارة بكل أسبابها .. ونحل محلها حضارة إسلامية متكاملة الأركان؟. أقول إن تقويض الحضارة معناها زلزلة كيان الأرض وتخريبها؟ وهذا أمر غير طبيعى .. وفى نفس الوقت هو عمل غير إسلامى .

لأن النبي لم يهدم فى مكة إلا تماثيلها التى كانت تعبد من دون الله ، بل إنه فى ظلال الدولة الإسلامية صينت المعابد غير الإسلامية ورفض عمر بن الخطاب الصلاة فى كنيسة بيت المقدس .. فى حين كان بمقدوره وهو القائد المنتصر أن يحول كل الكنائس إلى مساجد .

خلاصة القول أن الإسلام لا يرفض الحضارة ، ولا التقدم العلمى فى كافة مجالات الحياة ، إلا إذا صادمت جوهر العقيدة .. وعلى هدى هذا التفكير يمكننا أن نتخيل دولة إسلامية يقوم بناؤها على الأسس التالية :

البناء الدستورى : ودعامته الرئيسية الحكم الشورى « وأمرهم شورى بينهم » — وتحت مظلة الشورى الملزمة يمكن أن تبنى المؤسسات الدستورية ، ومن خلال هذه المؤسسات يمكن أن يتحقق العدل بين الناس .. ومن خلال الدستور ومؤسساته توضع التشريعات التى لا تتعارض مع التشريعات الإسلامية .. فكل تشريع يبيح الخمر ، أو لا يحرم الزنا ولعب الميسر ، والتعامل بالربا ، وأكل أموال الناس بالباطل .. هذا التشريع يعد باطلا من أساسه .. وإذا استجدت مصالح للناس ولم يرد بشأنها نص صريح فللمجلس الشورى أن يضع لها التشريع المناسب

التربية والتوجيه :

بالتربية ابتداء من الطفولة إلى آخر مشوار الحياة، وأتمثل شعاراً للتربية من كلمتين قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل آمنت بالله

ثم استقم » أى المزج بين القول والعمل .. وقد حذرنا الله تعالى من الفصل ما بين القول والعمل « **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** »

والتربية فى الصغر لها أثرها الخالد فى النفس ، فعلينا أن نهتم بالناشئة ونلقنهم الدين بأبسط وأيسر أسلوب مستعينين بكل الوسائل التربوية الحديثة .. والتربية الدينية لا تعنى قصر التربية على الأمور الفقهية ، أو حفظ القرآن والحديث فقط ، ولكن يجب أن ننتقل بالناشئة إلى التربية التطبيقية ، فنعودهم الصلاة والصيام ، والزكاة ونحاسبهم على تفريطهم وتقصيرهم ، ونراقبهم فى سلوكهم .

أما الكبار فإنهم فى عصرنا يعيشون مع التليفزيون والسينما ، والإذاعة والصحافة .. وهذه الأجهزة فى حاجة ماسة للتوجيه من داخلها قبل أن تواجه الجمهور .. واختيار العاملين فى هذه الأجهزة يحتاج لتدقيق شديد لأن هذه الأجهزة تقوم مقام المعلم والمربى ، وفاقد الشىء لا يعطيه ... والمطلوب تحويل هذه الأجهزة إلى مدارس ناطقة ومصورة ، وهى إذ تفعل هذا لا يعنى أنها لا تقوم بدورها الترفيهى بل على العكس فإنها مطالبة أن تصبغ توجيهاتها بصيغة جمالية حتى تشد إليها الانتباه . . وأول ما نطلبه من هذه الأجهزة أن تغتسل من الأفلام والتمثيليات الأجنبية والمصرية التى تشيع الإجرام والجنس .

الاقتصاد : المال قوة مؤثرة فى الأفراد والدول ، وللمال سلطان فى عصرنا يفوق أى سلطان آخر .. والمطلوب منا أن نطوع المال للعقيدة ، ولا نطوع الغقيدة للمال .. ولقد لخص رسول الله صلى الله

عليه وسلم العلاقة بين المال والعقيدة بقوله : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » فصلاحية المال تتوقف على صلاحية الإنسان .

ولقد تيسر للأمة الإسلامية الوفير من المال بعد ظهور النفط ، وظهوره بوفرة فى البلد الذى ولد فيه الرسول وولد فيه معظم الرسل ، وظهرت فيه معظم الرسالات .. وهو لون من الابتلاء لنا ، ابتلاء بالخير ، فإذا وفقنا للاستعانة به وأصلحناه وأصلحنا به أمتنا كان لنا نوراً وخيراً ، أما إن سخرناه لشهواتنا وأهوائنا فإننا سنحترق بلظاه .

إن النفط بإمكانه أن يمنحنا الاكتفاء الذاتى ، ولا يحوجنا إلى المستثمرين الأجانب ، ثم إن بإمكانه أن يشترى الخبرات الأجنبية والتكنولوجيا الحديثة ، ويفتح أمامنا أوسع المجالات العلمية ، وبإمكانه أن يحررنا اقتصادياً وسياسياً ، ويعيننا على التخلص من الوباء الاستعمارى والصهيونى والشيوعى الذى لوث حياتنا لقرون طويلة .

والمال سواء فى يد الدولة أو يد الأفراد فى حاجة إلى التطهير من كل ضروب الظلم ، ومن أخطرها الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل والجور والظلم .. وعلى هدى هذه المبادئ يستطيع المجلس التشريعى أن يصوغ التشريعات والقواعد التى تحقق العدالة الإسلامية .. ويومها سوف يختفى الفقر والجوع ، والاستغلال ، وتبسط العدالة يدها على الجميع .

وللمال رسالة هامة وخطيرة وهو أن بإمكاننا الاستفادة منه فى الدعوة إلى الله فى داخل الأمة الإسلامية وفى خارجها ، لأن أساليب

الدعوة الحديثة تحتاج إلى الإنفاق بكثرة على الدعاية كما أن بإمكان المال الوفير فى بلادنا أن يفتح مجالات استثمارية فى الدول الأخرى فيعينها على حل مشاكلها الاقتصادية ، وهذا يعطيها فرصة أكبر لإبلاغ رسالتها .. وبإمكاننا أن نجعلها ممن يستفيدون من « المؤلفة قلوبهم » حتى نفتح شهيتهم لتفهم الإسلام .. لأن الجائع والعريان فى حاجة إلى الخبز واللباس حتى يعيرانا آذانهم .

العلاقات الاجتماعية : وأعنى بها العلاقات داخل المنزل وخارجه ، وهذه وضحها الإسلام ويعرف الناس معظم قواعدها ، ولكن يعوزهم التطبيق وخاصة فى مواجهة عالم متفكك ، ونظراً لأننا نعيش عصر سيطرة القوى الكبرى ، سيطرة اقتصادية وسياسية وعسكرية واجتماعية فإن التفلت من سيطرته يحتاج لفترة زمنية قد تطول ، ولا بأس من الأخذ بالتدرج فى بناء مجتمع مسلم متكامل .. فنضع أمامنا المثل الأعلى للمجتمع المسلم المثالى ، ثم نسلك إليه شتى الضروب حتى نبلغه .. فمثلا مبدأ الاختلاط بين الجنسين يرفضه الشرع إلا فى حدود ضيقة تقضى بها الضرورة ، لكن ماذا نفعل أمام هذا الموج الهادر من الاختلاط الذى أباح الجنس ، وجهر به فى الطرقات ، وصوره على شاشة السينما بصور مزرية . ووضع له فلسفة .. إننا لا نملك أمام هذا الزحف الفاجر إلا الأخذ بالتدرج حتى نصل إلى الصورة المثلى .. وهذا التدرج يحتاج منا إلى الحكمة حتى نتمكن من النفاذ إلى المجتمع واستنقاذه من الفساد المستشرى فيه .. وإلا عزلنا المجتمع ومضى فى سبيله .. أو عزلنا أنفسنا عنه وهذا يعنى أننا يئسنا منه ، واليأس يقتل همة الداعية .

المواجهة الفكرية : العالم يموج بأفكار سياسية واجتماعية ودينية وهو إذ يعتنق فكراً أو عقيدة إنما يستجيب للفطرة الإنسانية ولعوامل الوراثة ، أو الوطنية أو القبلية أو التاريخ ، والمطلوب منا تصحيح ومعتقدات الناس بأسلوب هادئ وعلمى ، والصبر عليهم قد يصل بهم إلى ما نحن عليه من خير . . وحتى نتمكن من الوصول إلى عقول الناس ، علينا أن نقدم لهم الإسلام وهو يحمل إليهم الحلول الجذرية لمشاكلهم ، وخاصة مشكلة الحرية ،ومشكلة رغيف الخبز ومشكلة العلاقة بين الرجل والمرأة ، لأن هذه المشاكل الثلاث تكاد تزعج الناس وتؤرق أمنهم .. وهناك مشكلة كبرى وهى مشكلة الخوف الذى يعانيه الإنسان المعاصر ، الخوف من نفسه ومن مجتمعه ومن العالم كله ومن الحكومات ومن الحروب .

والإسلام قد حقق الأمن للناس فى الفترات التى التزم فيها المسلمون بدينهم واستمسكوا بمسلك رسولهم .. فلم لا تصور لهم هذه الفترات المشرقة لعلها تستهوى نفوسهم وقلوبهم .

الصراع العالمى : يعيش العالم تحت وطأة السادة الكبار الذين يملكون المال والسلاح .. وهم الآن يشخصون فى ثلاث جبهات : جبهة الرأسمالية وتاجها معقود للولايات المتحدة الأمريكية ، وجبهة روسيا ومن يدور فى فلكها من دول الغرب ودول الشرق ، وجبهة الصين وهى جبهة شابة ولكن لها من الإمكانيات العسكرية والبشرية المخيفة . هذه الجبهات تعادى الإسلام عن جهل منها ، أو عن عناد ، أو إرث تاريخى .. وهى على الرغم من ظاهر قوتها إلا أنها متآكلة من داخلها

شأنها شأن دول الفرس والروم فى العصر الإسلامى الأول .. ومقضى علينا أن نعمل على تقوية أنفسنا ، حتى نتمكن من الدفاع عن ديننا وعقيدتنا ، وأول أسلحتنا فى مواجهتهم هى الاستمساك بالإسلام قولا وسلوكاً وفهماً . لأنه فى حد ذاته قادر على هزيمتهم فكرياً وعقائدياً .. بل إنه قد ينفذ إلى شعوبهم ويثيرها ضد أئمة الكفر والظلم فى بلادهم .. وعلينا بعد ذلك أن نأخذ بكل أسباب العصر فى الإعداد الحربى حتى إذا وجبت المواجهة فإننا سنغلبهم بفضل عون الله وقوته « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم** »وقياساً على الماضى أقول لقد تمكن الإسلام بفضل العقيدة وحدها من هزيمة الفرس والروم خلال حكم أبى بكر وعمر ، فى حين لم تتجاوز فترة حكمهم أكثر من خمس عشرة سنة، ولم يكن تعداد سكان الجزيرة العربية ، ولم تكن عدة المسلمين تعدل $\frac{1}{100}$ من تعداد وعدة الإمبراطوريتين الكبيرتين .. ولو انتقلنا إلى عصرنا ، وقسنا الحاضر على الماضى لقلنا إن دولة المسلمين لو وجدت لها ركيزة فى « إمارة » لا يتجاوز تعدادها المليون لأمكنها بفضل الإيمان والعزم أن تهزم الإمبراطوريتين روسيا وأمريكا وحلفاءهما ..لأن القوة الظاهرة سوف تساندها قوى خفية يصنعها الله عند ما يجد الجد ويصدق العزم ولا داعى للاعتراض بأنه ليس فينا عمر آخر ، لأنه يوجد القرآن القادر على صناعة عمر القرن العشرين ، وذلك ليس بعزيز على الله ..

وأكتفى بهذا القدر عن تصورى لمجتمع إسلامى يمكن أن يتحقق فى القرن العشرين . ولوددت أن يجتمع به متخصصين وأهل خبرة وتجربة من دعاة الإسلام الذين تمكنوا من الجمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة المعاصرة ، ويقدموا لنا تصوراً تفصيلياً لأمة مسلمة يمكن أن تتحقق ولو فى دويلة صغيرة وفى أى قارة من قارات الأرض .

• • •

هل انتهى المشوار

أقول لا بالنسبة لنفسى ولغيرى .. لأن الإسلام يحملنا رسالة دائمة لا تنتهى حتى بعد نهاية عمرنا .. فالمطلوب من كل مسلم أن يعمل ما يستطيع ، ليبلغ رسالة ربه .. بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إنه بمقدور المسلم أن يبلغ رسالته بعد وفاته . . فالكاتب والقائد والمعلم ، والعالم يمكن أن يواصلوا رسالتهم بالكتاب أو بأى أداة حديثة ليبلغوا رسالتهم للناس ..وها نحن ندرس العلم على يد أئمة المسلمين الذين مضى عليهم أكثر من ألف سنة .. فلم لا يعمل جيلنا على إثراء الأجيال القادمة بالعلم والحكمة والمثل الحسن .

والجهاد فى سبيل الله سيظل ميدانه مفتوح أبد الدهر ، والجهاد يكون بالكلمة وبالورقة ، وبالسلاح وبالمال ، وهو فريضة تلازم المؤمن عمره ، والنكوص عنها تخل عن فريضة واجبة .. وما أكثر ميادين الجهاد .. ولنتذكر أن رسول الله لم يكف عن الجهاد بلسانه وبسلاحه إلى أن لقى ربه وهو يستعرض جيش أسامة بن زيد وهو يغدو إلى ميدان القتال .

فالمشوار لم ولن ينتهى وهو مشوار على الرغم من صعوبته إلا أن

السائرين على طريقه يستشعرون عظمته فى الدنيا ويطمعون فى ثواب الله يوم لقائه .

وإنى لأحمد الله أن يسر لى السبيل لأشارك فى أجل وأعظم عمل إسلامى شهده القرن العشرون .. وأحمد الله الذى ابتلانى فى سبيله وكتب لى من الصبر ماجعلنى أتحمل المحنة مؤمنا محتسباً.. وهيأ لى من الأسباب ما مكننى من تسجيل هذه الصفحات من تاريخ دعوة إسلامية .

وإنى لأسأل الله تعالى أن يعافينى من كل هفواتى وأخطائى ونسيانى إنه سميع مجيب الدعاء .

* * *

فهرس الموضوعات

الموضــوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٦٣٩ / ١٩٨٣
الترقيم الدولي ٧ -٠٥٧- ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
١٢ شـــارع نشـــاطي - شـــبرا مصـــر

دار الإعتصام
٨ شارع حسين حجازى - تليفون ٢٦٠٣١/٣١٧٤٨ - ص.ب ٤٧٠ - القاهرة
للطبع والنشر والتوزيع

١٠٠ قرش